سلوم العرب

مثلما أن نظام التعليم الكتابي عند الحضر لا يرى في اللهجات البدوية إلا أنها لغة مكسرة لا تلتزم بقواعد الفصحى التي صاغها النحويون وعلماء اللغة، كذلك فإنهم لا يرون في نظام البدو القضائي والسياسي إلا مظاهر العنف والفوضى والتمرد واللاشرعية والخروج عن نصوص القوانين المكتوبة والشرائع السماوية التي صاغها الفقهاء والقضاة الشرعيون ورجال الدين. وقد سبق لنا القول في حديثنا عن لغة الشعر النبطي وأوزانه أن هذه اللغة والأوزان، مهما بدت لنا في ظاهرها فوضى غير مقننة، فإنها محكومة بقواعد، مثلها مثل الفصحى. إنها سلوك إنساني، والسلوك الإنساني كله محكوم بنظام، إلا أن اكتشاف هذا النظام يحتاج إلى أدوات منهجية وأطر نظرية. ومثلما يمكن توظيف المنهج العلمي لاكتشاف القواعد اللغوية يمكن توظيفه أيضا لاكتشاف القوانين الاجتماعية التي تحكم الوضع السياسي والاجتماعي في وسط الجزيرة والصحراء العربية والذي نصفه دائما بالفوضى. حياة الصحراء لها قوانينها التي يعرفها البدو جيدا ويتعاملون معها بمهارة ويسمونها **سلوم العرب**، والتي تتداخل مع القانون العرفي أو القانون العشائري، الذي سنتناوله في الفصل القادم، وتشكل معه نظاما متكاملا يغطي جميع التعاملات الفردية والجماعية، داخل القبيلة وخارجها. إنه لأمر مؤسف أننا حتى الآن لم نتخطّ منهج الحوليات وتسجيل الأحداث في كتابنا لتاريخ الجزيرة العربية إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى تحليل الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي ورصد حركة التاريخ ومسيرة التطور الاجتماعي والثقافي عموما في الجزيرة العربية. إننا ما نزال نصدق ما تحاول ترويجه كل مؤسسة رسمية جديدة تأتي لتفرض سلطتها على هذه البقعة وتصور بأن كل ما كان قبلها مجرد جهل مطبق وفوضى عارمة.

قواعد الاشتباك

إذا كانت الحروب والغارات تشكل جانب العنف من جوانب المعادلة القبلية فإن **سلوم العرب** تمثل الجانب الآخر، الجانب السلمي الذي يحاول أن يدفع بالحياة ويؤمن استمرارها رغم الحروب. جميع نزاعاتهم الحربية والسلمية محكومة بقوانين وأعراف "**سلوم**" يحرصون على التقيد بها لأن مخالفتها تعتبر **بوق** و**البوق** يسوّد وجه صاحبه ويجعله عرضة للهجاء. **السلوم** تحكم تعامل القبائل مع بعضها البعض وكذلك مع الحضر ومع العالم الخارجي. وكلمة **سلم** في اللغة تعني الشيء الدارج والمتبع، كأن نشير إلى العملة النقدية الدارجة في بلد ما أنها سلم ذلك البلد. أما كمصطلح اجتماعي فإن **السلوم** هي جماع السنن والأعراف والتقاليد المتوارثة منذ أزمان سحيقة والتي تحكم علاقة القبائل وتعاملاتهم مع بعضهم البعض وتضمن استمرار وجودهم

وسلامة حياتهم وممتلكاتهم في ظل انعدام السلطة المدنية. والسلوم القبلية، مثل اللهجات القبلية، تشكل إرثا مشتركا بين كل القبائل، بالرغم من بعض الاختلافات الطفيفة من قبيلة لأخرى، مثلها مثل الاختلافات الموجودة بين اللهجات القبلية والتي لا تمنعنا مع ذلك من القول بأن هناك لغة مشتركة بين القبائل. لا يستطيع عبور الصحراء، دع عنك العيش فيها، إلا من يعرف هذه السلوم ويعرف كيف يتعامل معها، وهي من القوة بحيث تبقى فاعلة ومؤثرة حتى في حال وجود سلطة مدنية. أما إذا غابت سلطة الدولة حلت محلها سلوم العرب وحل الشيوخ محل الأمراء والعوارف محل القضاة. في غياب سلطة الدولة تسيّر **سلوم العرب** حياة البدو والحضر على حد سواء وبنفس القوة، خصوصا في المناطق النائية التي قلّما تطالها يد السلطة. ولأهمية السلوم يقولون في أمثالهم **قطع الخشوم ولا قطع السلوم**. يحرص البدوي على الإلمام بهذا الإرث القبلي وتوظيفه بمهارة، وهذه خصلة في الرجل لا تقل في أهميتها عن الشجاعة، وهي مهمة يقوم بها عادة شيوخ القبيلة وشعراؤها.

العنف القبلي لا يعود إلى غريزة متأصلة في البدو أنفسهم وإنما إلى خاصية بنيوية متغلغلة في طبيعة النظام القبلي نفسه والذي شكلته بيئة الصحراء بمواردها الشحيحة. الصراعات القبلية ليست بواعثها العداء المستحكم ولا الرغبة في القضاء على الخصم. إنه صراع من أجل البقاء ومن أجل الحصول على ما يقيم الأود من موارد الصحراء الفقيرة. وللحد من إراقة الدماء وردع ضراوة العنف الكامن في ذات التنظيم القبلي وما يفرزه من تنافس حاد على موارد محدودة لجأ البدو خلال العصور المتعاقبة إلى استحداث وتطوير تدابير سلمية تحكم تعاملاتهم وعلاقاتهم فيما بينهم كأفراد وكجماعات في السلم والحرب.

ربما تكون ممارسة الغزو من أهم النشاطات التي تميز حياة البادية عن حياة الحاضرة والذي يرى فيه الحضر مؤشرا على الاضطراب والفوضى وانعدام الأمن. تنبع هذه النظرة من التركيز على الجانب الحربي والقتالي دون الالتفات إلى الجانب الاقتصادي للغزو. الغزو متكيّف في كل جانب من جوانبه مع حياة البدو ومتمشيا معها ويمارسونه كنشاط موسمي، مثله مثل الحراثة والزراعة والدراسة عند الفلاحين. حروبهم وغزواتهم هي طريقتهم في التكيف مع تقلبات المعيشة في بيئة الصحراء. ولا يُعتبر الغزو في عُرف البدو سرقة ولا سلوكا شائنا يحط من قدر صاحبه، بل هو سلم، أي عادة متعارف عليها ومقبولة من الجميع، مثله مثل أي نشاط مشروع وعمل شريف. وهذا ما عبر عنه مبيريك التبيناوي في قوله مخاطبا سعدون العواجي: **هذي قروضٍ بيننا يالقرابات// يازين رداد الجزا قبل حينه**. ويقول سويلم العلي السهلي: **سبِّر لعجمانٍ على كِنّسٍ حيل// ضرما يبون المال ما فيه لوم**. العيب عندهم هو في عدم التقيد بالمعايير ومخالفة السلوم والقوانين التي تحكم الغزو. الرجل الحريص

على بياض الوجه عليه أن يتعامل مع الآخرين، الأعداء منهم والاصدقاء، في حالات السلم وفي حالات الحرب، بصدق ووضوح ونقاء: على وضح النقا.

على الرغم من حياته التي تقوم على الغزو والحروب فإن شجاعة البدوي شجاعة نخوة وفروسية، ليست شجاعة قسوة وانتقام. لقد حوّل البدو أرض المعركة من بركة دماء إلى مسرح لاستعراض الفروسية وتحقيق الأعمال البطولية، والكل يطمح إلى أن يحصل على دور أساسي في هذا المسرح ويسجل اسمه في عالم السوالف والقصيد. ولا يكسب الفارس شهرة بقتل عدوه مثلما يكسبها بالعفو عنه. يقول موزيل "الحرب تمنح البدوي الفرصة ليدلل على دهائه وصبره وشجاعته فهو لا يرغب في سفك الدماء ولا يطمع في الكسب لكن الخطر يغريه والمغامرة تستهويه. أما الغنيمة فلربما وهبها بدون تلكؤ إلى زوجة الرجل الذي نهبها منه" (Musil 1928a: 504). المنح والكرم والعفو وتغليب الحياة على الموت، هذه قاعدتهم في التعامل مع خصومهم، لأنهم يعرفون أنهم أمة واحدة تربطها أواصر وتحكمها أعراف وضوابط تضع حدا يحول دون وصول الأمور بينهم إلى درجة الفوضى المطلقة والمجازر. في ثقافة الصحراء منح الحياة أضمن لشيوع الصيت من إزهاق الروح. وعلى هذا الأساس فإن الخصوم لا يتركون بابا إلا طرقوه ولا دربا إلا سلكوه للحصول على مطالبهم بالطرق السلمية والمرافعات القضائية ويحاولون مدافعة العنف المسلح وحصر النزاع فيما بينهم على الجانب القولي والحرب الكلامية من شعر وخطابة دون اللجوء إلى سفك الدماء. وليس أدل على ذلك من ثراء الأعراف القبلية وما تتميز به من تشعب وتعقيد مما يعمل على كبح جماح العنف وحقن الدماء.

قاموس البدو مليء بمصطلحات الحرب والشجاعة والبسالة للدفاع عن شرف القبيلة وحماية مصالحها، لكن البدو يستهجنون العنف ويستبشعون القسوة ويؤثرون العفو عند المقدرة. ليس الهدف من الحرب القضاء على الخصم ولا استعباده أو إذلاله وإنما الهدف هو الاستيلاء على إبله أو احتلال مراعيه بأقل ما يمكن من الخسائر في الأرواح. ويحرصون على التقيد بأصول لعبة الحرب وقوانينها وعدم الغدر للحد من سفك الدماء ولأجل أن يكون الانتصار مشرّفا. لا أحد يعي مثل البدوي صعوبة الحياة في الصحراء وتقلبات الدهر وأحوال الدنيا لذلك لا يسكره النصر ولا تحط من عزمه الهزيمة. والغالب دوما يعامل المغلوب مثل ما يحب أن يعامله لو كان هو الذي تحت رحمته. وهم حريصون على الحسنى فيما بينهم وبين أعدائهم ميالون إلى التسامح معهم وتبادل الجميل وفلسفتهم في ذلك ودافعهم إليه هو أن الذي رمى بعدوك بين يديك اليوم قادر على أن يرميك بين يديه غدا فلتحسن إليه بينما هو في حاجة إلى جميلك ليحسن إليك حينما تكون في حاجة إلى جميله. ومما يقوي نزعة الإحسان هذه بينهم أن المحسَن إليه غالبا ما يخلد اسم من أحسن

إليه بقصيدة ينشدها في المجالس ويشيد فيها بموقفه ويزجي له الشكر والعرفان ويرفع له الراية البيضاء: يبيّض له في أحياء العرب.

تختلف قوانين الغزو بين المتحاربين حسب قربهم وبعدهم في النسب عن بعضهم البعض. إذا كانت الأطراف المتحاربة ممن يمتون لبعض بصلة القرابة والرحم أو لم تكن بينهم ثارات وعداء مستحكم فإن المتقاتلين من كلا الطرفين يحرصون على عدم إراقة الدماء ويصرف كل منهم همه إلى إعاقة المحاربين من الطرف الآخر وتعطيلهم بقتل خيلهم وركائبهم ودفعهم للاستسلام. ولا يجهزون على من يصاب ويسقط عن راحلته "الصويب"، "الطريح" إلا إذا كان من المطلوبين بثأر أو ذحل. كما أن الغزاة لا يتعرضون للنساء والأطفال والشيوخ أو أي شخص لا يحمل السلاح ولا يبدي أي مقاومة. كما يستنكف الغزاة من إلحاق الأذى أو نهب من ينقل الماء ويسمونه الروّاي أو الحدار الذي يمتار لأهله ويسمونه النقِذ، أو المسافر ويسمونه المدّاد، وقد لخص أحدهم ذلك في قوله ممتدحا عفّة فهيد الصيفي من شيوخ سبيع الذي لا يتعرض إلا للإبل في الفلاة:

ما ياخذ الطارش ولا يقطع النقذ شَرْهٍ على سِحْج البكار الجلايل

وإذا حميت المطاردة بين الطرفين في ساحة القتال تبدأ المساومات بين الطارد والمطرود على المنع وهو أن يتعهد الطارد بالكف عن المطرود وحمايته: على رْقِبْتَك ياولد، عليك الله وامان الله، وذلك مقابل تخلي هذا الأخير له عن سلاحه وراحلته، أو أي جُعل يتفقان عليه، والذي يحدده مدى ثقة كل منهما بنفسه ومدى شعور المطرود بحرج موقفه وإذا ما كان له أي أمل في النجاة. وقيمة الجعل الذي يحصل عليه المانع من الممنوع تعتمد على أهمية ومكانة الممنوع. يقول ابن بليهد أن دهنين القحطاني من آل روق منع محمد ابن هندي واستلم مكافأته منه مائة وعشرين من الإبل (بليهد١٩٧٢/ ٢: ١١٩-٢٠). وإن كان طرادهم على الخيل يخيّر الطارد المطرود بين المنع ، أي أن يعاهده على المنع، أو الشلع، أي أن يجتثّه يشلعه من على ظهر فرسه ويقتله ويستولي عليها بالقوة. وقبل أن يستسلم المطرود يسأل الطارد من يكون: من انا بوجهه؟ ليعرف مكانته في قومه وهل هو قادر على حمايته فعلا وتحمل تبعات المنع. وأحيانا قد يشتري شخص مغمور اسم شخص مشهور ليمنع به لأن المطرود لن يسلم نفسه إلا لشخص مشهور وله سمعة. والطارد، كما قلنا، يحاول إقناع المطرود بالاستسلام له ومنعه طمعا في سلبه راحلته وسلاحه. قال لي أحد الرواة أن فلان من الناس

> ما هو من العردان، من الضبْعان، مير شَرى ابوه العردانية يَمْنَع به وشراه شْرَى من رْميح ابن عردان بجملٍ اوضح. رميح خالٍ لجده وقال ابيك تسمح لي ياخالي امنع باسمك لأن اسمي ما هو معروف عند الناس. والا هم أصلهم يقال لهم المضينين من الضبعان. شرى العردانيه من خاله بجمل اوضح، شرى العردانيه يمنَع بَه علشان ان اسمه هو ما هوب مْعَروف عند الناس.

كذلك الطارد عليه أن يعرف المطرود قبل أن يمنحه الأمان فقد يكون واحدا من

اللذين نذر شيخ القبيلة أو أحد رؤسائها بأن يقتله إن ظفر به. ولشيخ القبيلة الحق في رفع المنع عن من تطلبه القبيلة بثارات: **فلان مرفوعٍ عنه المنع**. يقول موزيل:

من يجد نفسه أمام موت محقق يطلب المنع بهذه الكلمات "امنع امنع ياخيّال."
ويجيب الرجل المخاطب "جاي على رقبتك، منعٍ عليه الله،" أو "حوّل بوجه فلان"–ويسمي نفسه. ويقترب طالب المنع ويطلب "عطني الله،" أو "حط الله بيني وبينك!" إذا تم ذلك على هذا الوجه يقول المنيع "عطاني الله وعطيته الله عن البوق!"
بعدها يسلم المنيع سلاحه وملابسه ويرمي المانع عليه عمامته أو عقاله قائلا "هاك قضاضتي (أو عْصابتي) واللي يجيك خبّرُه انا منيع فلان."
والمنتصر له الحق في أخذ فرس المنيع أو ذلوله، وقد يسلمها في يد أحد أصحابه ويواصل القتال. ويلوح المنيع بالعصابة أو العقال ويصوت "أنا منيع فلان." وإذا كانت راحلة المنيع منعثرة أو هو مصاب فإن من منعه يأخذه إلى البيوت لمعالجة صوابه أو يسمح له بالعودة إلى أهله بدون تأخير. وإذا كانت منازل قومه بعيدة يعطونه راحلة وقربة ماء وزهاب ودليل يرافقه ولكن عليه أن يعطيهم عهدا موثوقا أنه سوف يعيد لهم كل شيء أو يخسره لهم (Musil 1928a: 529) .

ويقول العبيد في ثنايا حديثه عن هذال ابن فهيد الشيباني:

أما فروسيته فحدث عنها ولا حرج عليك فمن ذالك ما شاهدته بعيني فقد حدث ذات يوم والعرب يرحلون وكانوا نازلين في نفود قريبا من ماء يسمى دلقان فاذا بالصايح يرفع صوته عند عرب من بني عمرو ورئيسهم احبيليص بن اعديس وبجوارهم فريق من الدغالبه ورئيسهم اسمه سعود بن ورّان وبيننا وبينهم كثيب رمل عالي يحجب الانضار فما راعنا الا والقوم ينحدرون علينا من الكثيب ولم يعلموا بمنزلنا هذا حتى خالطونا وقد غنمو ابلا وهم يسوقونها امام جيشهم فلما رآ هذال وعربه انهم خالطوهم ركبو على ضهور الخيل من ساعتهم فلما رأو أنهم خالطو العرب تركو الابل التي غنموها من موقفهم ذالك واقتصرت فتنتهم لحماية انفسهم وكان عدد خيل هذال الذين كرو معه خمسين فارسا وكان الغزو المذكورين يقال لهم الغييثات من قبيلة الدواسر وكان هذال لما ركب على فرسه امر على خيله بالركوب ثم امر على الجيش ان يركبون جيشهم ويحملون معهم قرب من ما ثم يقْفون اثر الخيل ثم تتابعت الافزاع من عرب هذال ومن العربان المجاورين له فلما علم الغزو انهم واقعين في خطر داهم عمدوا على جيشهم فقرنوه بارسانه وجعلو كل اربع من الركاب في قرن واحد ونزلو اهله عنه يمشون على اقدامهم خلف جيشهم وعن يمينه وشماله وبايديهم البنادق والخناجر وكانو يرزفون وراء جيشهم ثم افترقت خيلهم يمين الجيش وشماله ليحمون جيشهم من جوانبه واما هذال وفرسانه الذين معه فهو صبر عن الكر عليهم حتى تكاملت افزاعه عنده فجمع خيله وجعله كردوسا واحدا ثم انه امر على اهل خيله بان قال لهم ترانا نبي نكر على جيشهم كدة واحده ونضربه من الخلف حتى نشطره شطرين والحي منا لا يقف الا امام الجيش ومن مات منا فهو مرحوم وكان عدد غزو الدواسر ثمانين مطيه وثلاثين فارسا ثم انهم فعلوا ما امرهم به هذال فدفعو انفسهم كردوسا واحدا فشطرو الجيش شطرين على ما يريده ولكنه في كرته تلك هو وفرسانه سقط من فرسانه سبعه منهم ولده جهز اصابه سهم في رجليه الثنتين على قلب فرسه فماتت الفرس من ساعتها وسقط هو على الأرض مكسورة رجليه ومنهم ثقل ابن امومنع مكسورة فخذه ومنهم خدر بن سعيني قتيل ومنهم اخوه دحيم ابن سعيني كسرت رجله ومنهم هلال بن مصلح قتيل وهذال هو عم المذكور وغيرهم ومراده زال حين ما أمر فرسانه ان شطروا الجيش شطرين يريدون تعويقهم حتى يلحق بهم

جيشه فحصل له ما قصد وكانت خيل الدواسر تطارد خيل هذال حتى لحق بهم جيشه الذي لحقهم من خلفهم وهم المدد وكان عددهم ما يزيد على تسعين ذلول وبايديهم البنادق وكل ذلول برديفها وقد وقع من الغزو عدد كثير بين قتيل وجريح وقتل من خيلهم خمس افراس فلما امر هذال على جيشه وخيله ان يحيطون بهم من كل جانب ففعلو فحين اذ علموا ان لا مفر لهم من ان يطلبو المنع من هذال فابتدرهم هو وناداهم بالمنع واول من انقاد الى المنع اميرهم ومعه عدت جيش من اصحابه وتتابع الباقون فامتنعوا وكان هذا المنع هو ان ينادي المتغلب ويقول للمغلوب لك وجهي وامان الله ان تسلم من القتل مني ومن قبيلتي وما كان معك من ذلول او فرس او بندق فهي لي فيمتنع على ذلك فهرب من جيشهم ما يقرب من عشرين ذلول واثنعشر فرس وما بقي عن هذا العدد من خيل وجيش فقد سقط بيد هذال وجنده بين قتيل واسير ثم رجع الى البيوت ومعه الأسارا ثم عمد الى ثنتين من الابل ونحرها للاسارا ولجماعته ثم قال للاسارا يادواسر اليكم جلود الابل حينما تسلخ فصلّوها لكم نعالا تحتذونها الى اهلكم وهانا قد ابرزت لكم جملين من شدائد اهلي التي يرحلون عليها وساحمل لكم فوقها زاد وما وهذا بن عمي اهميلان ابن فهيد يمشي معكم الى ان تصلون اهلكم ثم تردون جمالي علي مع ابن عمي وليس لكم فيها طمع فقالوا نفعل ما ذكرت وليس لنا فيها معروف بل المعروف يعود لك علينا فحين انتهى من ضيفتهم لبسو حذائهم الذي احتذوها من جلود الابل وساقو الجملين ومشو هم واهميلان وبعد ما مضى اثنعشر يوما رجع اهميلان بالجملين ولم يلحقها كلل واهميلان هو والد نوار الملحق بحاشية الوزاره السابقه (عبيد: ١٢١–٣).

وبدل المنع قد يقدم الطارد على أسر المطرود ليصبح أسيرا عنده "ربيط" يطلب منه الفدية، إلا أنهم لا يقرون الربط إذا كانت الجهتين المتقابلتين من نفس القبيلة. وقد يمن الطارد على المطرود ويطلق سراحه بعد أن يجز ناصيته، كما كانوا يفعلون في الجاهلية (جرمان ١٩٩٧: ٢١؛ فهيد ١٩٩٥: ٢٣٨؛ Musil 1928a: 116). وقد تتم عملية المنع بصورة جماعية يأخذ فيها المنتصرون ما بحوزة المغلوبين ولا يتركون لهم إلا الحد الأدنى الذي يبقي على حياتهم كأن يتركوا لهم واحدة من رواحلهم وقربة ماء يحملونها على الراحلة حتى لا يموتوا عطشا، وقد لا يتركون لهم شيئا البتة على أمل أن يموتوا جوعا وعطشا دون أن يتحملوا هم دماءهم. وغالبا ما يعثر الصلب، أو حتى البدو الآخرين، على مثل هؤلاء الغزاة التعساء الذين ربما مر عليهم عدة أيام يمشون حفاة بلا ماء ولا طعام فينهكهم التعب والجوع والعطش فيتساقطون من الإعياء ويغمى عليهم. وأول ما يجب عمله في هذه الحالة هو تنقيط نقط قليلة من الدهن في حلوقهم ثم تسعيطهم الماء من أنوفهم، حتى يفيقوا شيئا فشيئا من غيبوبتهم، عندها يعطونهم قليلا من الماء والطعام ليستردوا قواهم (Musil 1927: 228, 445). يقول موزيل في كتابه الذي يروي فيه رحلته في شمال الحجاز:

في الساعة الثامنة أتينا إلى أربعة عشر كومة من أكوام الحجارة التي كانت قد كُوِّمت لتخليد ذكرى جميلٍ حدث في ذلك المكان حيث أنقذ الشيخ طويلع الخضري أربع عشرة من الغزاة الذين كانوا على شفير الموت. فقد خرج أولئك في غزوة إلا أنهم فوجؤوا بأن أحاط بهم من هم أقوى منهم فاستسلموا لهم وسلبوهم سلاحهم وركائبهم وكل ما معهم، بما في ذلك ملابسهم. وكان عليهم العودة إلى أهلهم مشيا على الأقدام. ولمدة ثمانية أيام

كانوا يقتاتون على أعشاب الصحراء ولكن الوهن نال منهم في اليوم التاسع بحيث لم يعد باستطاعتهم مواصلة المسير. وظلوا في نفس المكان لمدة يوم وليلتين لا يسمعون شيئا في الليل سوى أصوات السباع ولا يرون شيئا في النهار إلا الطيور الجوارح تحوم حولهم. وهكذا ظلوا ينتظرون الموت. وأخيرا رحمهم الله بأن بعث لهم الشيخ طويلع الذي أنقذ حياتهم (Musil 1926: 204).

وبينما يفرق العرب الأواخر بين المنع والأسر، لم تكن هذه التفرقة موجودة في العصر الجاهلي وكانوا يستخدمون كلمة **المنع والمنيع** في ذلك العصر للإشارة إلى ما يسميه العرب الأواخر **الدخاله والدخيل**، بمعنى أنهم يحمونه ويمنعونه من أن يصل عدوه إليه. كان المحاربون في الجاهلية يوجهون همهم إلى أسر الأعداء، خصوصا السادة والموسرين، طمعا في الفداء. وإذا استأسر المنهزم فلربما اكتفوا بجز ناصيته إن كان ذا مكانة في قومه وذلك طمعا في أن يبادلهم الحسنى بالحسنى والمعروف بالمعروف في قابل الأيام. ويكرمون الأسير إن كان قد قدم معروفا للقبيلة أو لأي من أفرادها قبل أسره. وتصل الفدية إلى مئتي بعير، وربما تصل إلى ألف بعير إن كان الأسير من الملوك. ومن حوادث الاستئسار هذه الحادثة التي يسجلها أبو عبيدة في يوم جدود بين بني بكر بن وائل بقيادة الحارث بن شريك الشيباني الملقب بالحوفزان وبين بني سعد من تميم بقيادة بسطام بن قيس:

واتّبع قيس بن عاصم الحوفزان والحوفزان على فرس له يدعى الزَبَد وقيس بن عاصم على الزعفران بن الزبد فرس الحوفزان فإذا استوت بهما الأرض لحقه قيس وإذا وقعا في هبوط وصعود سبقه الحوفزان بقوّة فرسه وسنّه فلما خشي أن يفوته قال استأسر ياحارث قال الحوفزان ما شاء الزبد ثم زجر فرسه وجعل يقول اليوم أبلو فرسي وجدي (ويروى اليوم أبلو حلبي وحشدي) قال استأسر ياحارث خير أسير فيقول الحوفزان شرّ أسير فلما خشي قيس أن يفوته زرقه بالرمح زرقةً هجمت على جوفه وأفلت بها وقد حفزه عن سرجه فسمي بها الحوفزان وزعموا أن الحوفزان انتقضت به طعنته من العام المقبل فمات منها (عبيدة ١٩٠٥/١: ١٤٥).

وهذه حادثة أخرى من حوادث الاستئسار يسجلها أبو عبيدة والذي يُأسَر هذه المرة هو بسطام بن قيس نفسه وكان هذه المرة قد شن غارة مشتركة مع غريمه السابق الحوفزان الحارث بن شَريك على الثعالب من بني تميم فاستاق إبلهم ثم مروا على بني مالك الذين كانوا لهم بالمرصاد وكان مع بني مالك من الفرسان عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي والأُحيمر بن عبدالله وأُسيد بن حناءة، وقد لحق هؤلاء الثلاثة بسطاما يريدون أسره:

وألح عتيبة وأسيد والأحيمر على بسطام وكان أُسيد أدنى إلى بسطام من الرجلين فوقعت يد فرسه في ثبرة (يعني في هُوّة وهي الوهدة تكون في الأرض كالحفرة) قال وتقدم بسطام وجعل يلتفت هل يرى عتيبة وقد صار في أفواه الغُبُط (وهي مسايل المياه) فلحق عتيبة بسطاما فقال له استأسر ياأبا الصهباء فقال له ومن أنت قال أنا عتيبة وأنا خير لك من الفلاة والعطش وكان الأحيمر محدودا لا يكون له ظَفَر وكان فارسا ذا بأس ونجدة ولا حظ له في ظفر. قال فأسر عتيبة بسطاما قال ونادى القوم بجادا أخا بسطام بن قيس كُر

على أخيك وهم يرجون إذا أبَسوه أن يكر فيأسروه (قال والأبْس أن يعيّروه حتى يغضب فيأنف من التعيير فيرجع فيؤسَر) فنادى بسطام أخاه إن كررت يابجاد فأنا حنيف وكان نصرانيا قال فلحق بجاد بقومه (عبيدة ١٩٠٥/١: ٢٩٤).

وعموما فإن معاملة الغالب للمغلوب تعتمد في المقام الأول على بعد الطرفين المتحاربين وقربهما من بعضهما البعض في النسب وعلى حدة العداوة بينهما والتي قد تصل إلى حد القطع، وتعني قطع الرقاب أو قطع الحسنى. وقد يكون المتحاربون أصدقاء على الصعيد الشخصي لكن العلاقات القبلية والصدامات بين القبائل تضطرهم إلى خوض الحرب ضد بعضهم البعض دون أن يترتب على ذلك أضغانا أو يحملوا عداء شخصيا أحدهما تجاه الآخر. فالمتحاربون في الغالب ليسوا غرباء بل يعرفون بعضهم البعض. والعداوة مسألة نسبية فحريبك اليوم قد يكون حليفك غدا. وأسيرك اليوم قد تكون أسيره غدا. ويتعاملون مع بعضهم باحترام وتقدير. وحينما تسمعهم يتحدثون في سوالفهم وقصائدهم عن حروبهم مع أضدادهم تجد أنهم كلما مر اسم فارس من فرسان الأعداء أو شيوخهم أو أحد فروع قبائلهم كالوا له المدح بما يستحق وما اشتهر به من كرم وشجاعة وإن كان ميتا ترحّموا عليه، ولا يذمونهم إذا كانوا لايستحقون الذم. يقول جلوب باشا عن حروب البدو "ولا مكان للحقد أو الكره في حروب تقوم بين طائفتين تحكمها قوانين صارمة واستعداد دائم للاعتراف ببطولات كلا الطرفين" (Glubb 1960: 8) . ويقول ألاويس موزيل:

لما علم الأمير (نوري ابن شعلان) برغبتي في زيارة شيخ العمارات فهد ابن هذال وابنه متعب وعدني بأن يبعث معي خطاب توصية إلى صديقيه هذين.

لماذا أنت وهما أعداء؟ سألته.

نعم ياموسى، بصفتنا شيوخ لقبائلنا نحن أعداء ولكن كرجال نحن من أعز الأصدقاء. وأقسم لك بحياتك أنني أحب متعب كما أحب أبنائي لأنه فارس ونبيل ورجل نزيه. أقسم لك بالله أنني لا أقول إلا الحقيقة(Musil 1927: 22) .

وقد روى لي عبدالله ابن ناصر ابن شيحان السبيعي هذه الحكاية الطريفة:

هنا واحد عقيد يسمونه فهيد ابن العاصميه، هو من العجمان وامه من آل عاصم، قحطان، ويندبونه ابن العاصميه، جدي يسولف عليّ يقول لحقت لي على شايب والشايب يسولف على جدي يقول لحقت على فهيد ابن العاصميه واني شايفٍ هشمٍ بجبهته واني يوم نشدته هالهشم في جبهتك هذا وشّو منْه؟ قال: من ثنيان جعل الله كل هبوب تهب عليه في الجنه. إي وعزّ الله العزيز. عنوه على ثنيان ابن هديهد شيخ عجمان الرخم من سبيع. الاولين طيبين وعلومهم زينه.

وقد يتقابل المتحاربون خارج أرض المعركة للسمر وشرب القهوة ويتبادلون الزيارات وربما ضربوا موعدا للقاء آخر على ظهور الخيل. يروي منديل الفهيد سالفة كون حصل بين عتيبة وقحطان على وقت محمد بن هندي ويقول "في المساء ما صبر محمد بن هندي عن الصلاة أرسل خيال هاجري قصيرٍ لهم اسمه برغش ابن حويدر قال رح لناصر جد ابن حجاب او ابوه كان يعرفه من أول قال للمرسال رح قل له نبي الأمان نبي نصلي بين الفئتين قال ادعه يظهر من ربعه وانا اظهر من ربعي

والاقيه وفعلا تسالموا ونزلوا عن خيلهم بالأرض كل معه ربعه وصلوا الوقتين الظهر والعصر سوا وربعهم ينظرون وكان الشجاع الشيخ محمد بن حشيفان من قحطان ما اجزل عن الطراد والباقين موقفين اغار على عتيبة معه سربه وذبحت فرسه واظهروه ربعه وعاد عليهم وذبحت تحته الاخرى وهم ينظرون محمد وناصر قال منهو ياناصر هذا الخيال قال هذا محمد بن حشيفان قال محمد: ياالله نجّه يامنجّى الطير. علما انه كان يغير على ربعه عتيبه وهذا من حبهم للطيّب ومن زين نيّتهم" (فهيد ١٩٩٢/ب: ١٩٦). والسالفة التالية توضح لنا أن شن الغارات بينهم لا يحمل في طياته بالضرورة أي عداء شخصي، فالغرض من الغزو فقط هو الكسب. تقول السالفة إن العجمان أغاروا على سبيع لنهب إبلهم لكنهم لم يفلحوا في مغزاهم فينظم عجران ابن شرفي السبيعي الذي كان لاجئا عند العجمان قصيدة عصماء يمدح بها جماعته ويلقيها على مسامع العجمان دون أن تثير حفيظتهم:

عجران ابن شْرِفي سبيعي، امير آل علي من بني عمرو، عَمَى، كفيف. كان مْغَرّبٍ مع العجمان، زعلانٍ على ربعه وجلاويٍ مع العجمان بالديرة اللي حَدْرا، جارٍ عندهم هو وايّا منديل ابن غصاب من بني خالد، جيران عند العجمان اثنينهم، كل منهم من قبيله. يوم حْدَروا السبعان على وسميّةٍ بالصمان يبون يرعونها بمحَقّبه بِعْلُوّ الصمان قالوا حنا بِنْغَير على جماعتك ياعجران هالربيع الشويين اللي ما ياكلون الحِقّه من البل –هم ما غير ذْوابة بدو، شمشول عرب– حتى ثقلتهم مخلينها وراهم بالعارض، نبي ناخذهم نتقوّى بهم.. قال: ما هوب شوري عليكم، بني عمرو منصّرين. قالوا: حنا الاد المرزوقي مرزّقين. قال منديل: انا بَروح معهم. قال عجران: يامنديل ان طعتني فاقعد. قال: والله يقولون الاد المرزوقي مرزّقين ابروح معهم اترزّق الله. قال: ما هوب شوري عليك، انا واياك قْصَرا قاصرين. هالحين القصير الى صار من قبيله وصار قصيرٍ عند قبيلةٍ اخرى يسمّونه قاصر، يعني ما يِمدّ يده. الى طقه احد والا ذبح احدٍ ولدٍ له والا هَه، ما يتقاضى، حتى يتقاضى له قصيرِه. قال: انا واياك قْصرا قاصرين، ان طعتني خلك على فراش الكرامه. قال: الاد المرزوقي مرزّقين ابروح اترزق الله معهم، مير تري بيتي واهلي بوجهك لين اعوّد، أما انا على هالعوده، فْرسي طارد ومطرود، لا بالله ما اناب في وجهك. قال: اجل ما بالوجه منك شَيّ، ما عليّ منك. غزوا على سبيع، أغارَوا على ابل سبيع عند مْحَقّبه وخذوها. تجاولَت الخيل ولحقوهم سبيع وردوا البل. والى هكالاثنين من خيالة سبيع قوموا لك يجربعون منديل ابن غصاب الخالدي، جار العجمان، خويّهم، وكزّوه لى هو طايح من فرسه وتروح فرسه مارج ويضف رسنها عبدالله ابن محيسن، جْدِعُه عبدالله ابن محيسن من الجمالين وخَذى فرسه. صوّبُه صواب لكن انه ما مات. لى صار ما بين العرب مقاطع ما يلحْقون على الصويب. زَهَم العجمان، قال: الاد المرزوقي خويكم لا تخلّونه. ودبّروا، راحوا وخلوه بالمعاره. جوه جماعتنا وزمّلوه وزهّبوه وتجمّلَوا فيه وراح. شايبك العمى يوم اقفوا من عنده قام يتحسحس، ذل ان العجمان ياخذون ربعه. مرٍّ يقول انشا الله يبون يفتكون روحهم وفيهم بركه ومرٍّ يقول . . .آه، حواسيس. يوم خذى له يومين والى هذولا العرب جاييه ما معهم كسب. قال: ياسويّر –بنيّةٍ له عنده اسمه سوير– ياسوير روحي عند الغصاب توحّي لهالعرب اللي خْطَروهم وش يقولون. هو عمى ما يشوف. راحت سوير يوم عودت يا جايّةٍ تركض. يوم العبد شب لهم الضو وقام ينشدهم وشلونكم انتم يوم رحتوا لهالسبعان. قالوا: والله هالسبعان رحنا لهم طمعين فى اباعرهم

وشلّعونا، اخذوا جيشنا. قال: عينتوا غصاب ابن منديل؟ قالوا: الله الله، عيّنّاه مِتْغاوزِه عبدالله ابن محيسن وسعد الحرق من سبيع على خيلهم وطرحوه والخيل ارجدت عليه، والله ما ندري هو ذْبِح والا سلم، والله ما ونّوا عنا لين غاب قمر خمس، يطردوننا لين غاب قمر خمس.

يوم جا ابن منديل راح لابن شرفي قال: ياقصيري، ثِر لي. قال: ما لي مثار، انا نهيتك وانت ما انتهيت، فلكن ابروح لابن عمي. قال: من اللي قْلِعك؟ قال: قَلَعني عبدالله ابن محيسن. قال: انا ابروح لابن عمي كان انه تجمّل معي جماله والا ما لي عليه مثار، لاجل انك معتدي. راح عجران العما ونوّخ على ابن محيسن. قال: يابن عمي انا ما نيب جايّك بمثار ولا لي عليك وجه فلكن انا جيتك ابْيَه جمالةٍ منك، قصيري قام يندبني، وحاشني بالزهم وبالنخوه وجيت ابي جمالتك يابن عمي. قال: لا بالله ما دام كذا ابشر باللي تبي، ما دامك جيت بالوجيه وتْوَكّد ان ما لك علي مثار فانا ابرد عليك الفرس. تجمّل وعطاه اياه وجابَه يقوده قال لابن غصاب تاع لفرسك يابن غصاب. السوالف بالتفطّن. تري يوم انكفوا العجمان من مغزاهم على عجران –هو كريم والله اكرم من خلقه، يقولون ما يثني الدله، كود يطبخها بِكِر، ولا يذبح العنز لضيفانه والى ذبحت له ما ياكلها– وهو يقوم لك، اللي هو عجران، وهو يذبح له قطعة من الغنم، يوم الفَوا عليه جيرانه يبي عاد يضيّفهم. هو جاوه الخبر ان سبيع غلبوهم وانهم افتكوا بلّهم. قال: تفضلوا يالاد المرزوقي، والله ان ابرك الليالي ذا الليله، تستاهلون يالاد المرزوقي هالشحم. قال عاد واحدٍ منهم مزّاح، يمزح معه: يجعل اللي اعمى عيونك يعمي قلبك، اي بالله ابرك الليالي عندك انت الليله وانّا ما هيب ابرك الليالي عندنا، ابرك الليالي عندك انت يوم ان ربعك مشلّعينا وذابحينٍ رجالنا وخيلنا. قال: اسمحوا لي ابسمّعكم بيتينٍ عندي:

ظنيت في ربعي ولا خاب ظني ... وانا احمد اللي يودع الظن ما خاب
تصاقلن هم اقبلن وادبرن ... وغدى لهن في مقطع الجو ملعاب
وتصاقلن من حر ما يونْسِنّ ... من كف شغموم على الخيل معطاب
يوم ان منديلٍ عليهم يْشَنّي ... ما منهم اللي ردّها لابن غصاب

يوم ان ابن غصاب ينخاهم ويشناهم، يوم يزهم العجمان، يقول: الاد المرزوقي خويكم لا تخلّونه. ودبّروا، راحوا وخلوه بالمعاره.

عليه زلبات الرمك صنّفنّ ... وهلهن على عوج المناصيب قِضّاب
ورماحنا بظهورهم علّقنّ ... في مقطع الدفّه من الكتف نِشّاب
وذيدانهم عن الطنف رِدِّدَن ... وخليت عشب مْحَقّبه نِرْت مرتاب

الطنف الخد الزين، العشب الجيد. محقّبه بِعْلُوّ الصمان.

جموعنا بجموعهم دبّرنّ ... ولا يمرحون الا قمر خمس قد غاب

يعني هاجّين النهار كله وبالليل ما ياقفون يمرحون الا إلى غاب القمر ليلة خامس من الشهر، ذالّين. قالوا: جعل اللي اعمى عيونه يعمي قلبه، والله انه كنّه يشوف، كنِّه معنا يبارينا هالعمى. هذي يوم راكان ابن حثلين يقول:

بني عمرو جونا كما السيل دفّار ... وانّا لهم نشدى لدمث الزباره
يستاهلون البن وقناده بهار ... وان السنام معلّقٍ بالفقاره
نلطم شباهم دون حسكات الاوبار ... بمطارق نلحق بهن الثبباره

يوم علّم راكان علم عبيد الرشيد بقصيدته هذي، قال: بانت انها عليكم ياراكان، المطارق تِلحقون به الثبارا منحاشين. قال: اي والله ذلّينا وانحشنا ولا غلْب الرجال بعيب.

وهذه سالفه أخرى سجلتها من سعود ابن ثامر ابن سعيدا كذلك تبين لنا أن

ممارسة الغزو بين القبائل لا تؤثر على علاقة الاحترام المتبادل فيما بينهم وأنهم يتحلون بالروح الرياضية ولا يحملون أي ضغينة تجاه بعضهم البعض:

ثامر ابن سعيدا من ذوي حمود من القلادان، رجال فيه خير، شاعر وفارس، لو مو هو شيخ عرب لكن انه رجالٍ يارى بروحه وهاقيٍ بنفسه ومهاويٍ غطوى بنت مزعل ابن شميلان وغطوى محجّرها ولد عمها اللي هو دهيليس ابن معيضه ابن رشيد ابن حمود ابن عايد ابن هادي ابن قلادان. جاك ثامر ونوّخ على صنيتان ابن شميلان، شيخ القلادان. يوم سوّوا لُه قراه قال: صنيتان: قم على عشاك ياثامر. قال: انا ما جيتك ياصنيتان ابملى بطني عندك، أنا جايّك أبي جاهك ووجاهك عند مزعل يخلّي لي غطوى. قال: غطوى لها رجالٍ أولى بها منك، لكن قم تعش. قال: الله يجيب اليوم اللي تعرفني فيه أنا من رجالها والا ما اناب من رجالها. وقام ثامر والى الجوخه مشمّرةٍ عن رجليه. يوم هب البراد عقب ثلاث شهور قامت تندى البل على ربع وعلى تسع، غزوان الباديه قَبِل. ويشيّع ابن شميلان بالمغَزَى وتليّمت عليه الخيل والجيش وتليّمت الرجال النِّدَّر اللي يبون المطامع. معهم ابن حمد وابن حمود، أهل ميه وسبعين ذلول معهم سبع وعشرين خيال، يبون مطير. ثامر ابن سعيدا ما جا. ثامر يفقَد. نشد عنه صنيتان: وين ثامر ما جا؟ قالوا: ما هو جايّ. راحوا له خطاة الرجال اللي يحبّونه قالوا: والله ما نمشي مع صنيتان الا انت معنا والا ما نروح. جْبِرُه صنيتان على المغزى وغزى معهم على مطير. المغَزى على ابن شميلان هكالنهار، صنيتان، لوفان عطيّ الله، ثنا الله ما ينجحد، ومعه ابن حمود وابن حمد، أهل ميّه وسبعين ذلول، قلادان وما شبطهم من بني رشيد، معهم من الزبون ومعهم من كل بد، سبعين ذلول وميّه، ومعهم خمس وعشرين خيال، يبون مطير، جنوب، يم الحسو، حسو مطير. اثر مطير غزوينٍ لّهم الله ومروّحينٍ لهم على عرب قطينٍ على الحسو، غزوين جابهم الله عند هالعرب، ابن درويش وابن شرار، مروّحينٍ على هالعرب اللي بوجه هالغزيّه، غزيّة بني رشيد. يوم اصبحم شدّم العرب وغزوانهم اللي معهم توّرَوا يبون يرحلون يم لهم عشبة يقول يبرك الحوار ما تشوفه. واثاري سلفهم وسبورهم ناطَحَوا غزيّة بني رشيد ما دَرَوا بها. بني رشيد اول شافوا البل بالفلاة وما لقوا عند البل هوش، اثر اهلها متجمعين على الحسو، علموهو بهم السبور وتزبّروا لْهُو على الحسو: سحلي ابن سقيّان وهويل ابن جبرين وجهز ابن شرار وقعدان ابن درويش. قاعدينٍ لهم يقولون خلهم ياخذون البل مَرَدّهم علينا ما لهم مطيرٍ عن الحسو، مردّهم يجوننا فحاما مظمين يبون الما وناخذهم من تاليهم. الرشايده قلّطوا لهم ركابٍ يقلطن على الما. هل الركايب يوم شافوا جموع القوم تَزْبِر قْلبَوا على ربعهم، شافَوا الريبه قدامهم، قالوا لربعهم: الموت الحمر هو هذا قِدْمِكم. نْسفَوا البل، تقفّوه العصّايه، زَخّوها، روّحَوا بها، وعْزَلَوا المركي، البل شنق والردفا شنق. يوم انباح الشوف الضحى لى يوم والله تلاعطت الخيل الصفر والبل، البيوت ما كد قامت. ويضيع مِدّب المغيرة وهم يضربونهم. يوم شمّوهم الى والله انهم مطير، العرب والغزوين اللي عندهم. البل راحت، غدوا بَه اللي فضّوا بها، قفَّوا بَه العصّايه. وهم ينوّخون ويردّون الخيل والفزوع ويثوّرون، المحازم هكالحين على خمسين طلق من كبر القفوش، ما ياخذن غير خمسين طلق. وهم يتلابسون، يركبون على بعضهم. وهم الفرس يشكّرون له والذلول تْقَيّد وتختلط بلّها وخيلها، يحسبونها بس اباعر، ما كد قامت بيوتٍ يشوفونه. وهي تنقطّ عليهم المغيره على غير مِدِّب، يغيرون عليهم بني رشيد. يوم شموهم والى والله هذي مطير، حمر النواظر. مطير جايين غازين وصاروا مغزيٍّ عليهم. وتصير الحبسه على الثمايل. تعاطَوا هو وايّاهو ضْحَويه. يوم شمت الخيل الخيل ويضربون لك حسو عليا، يتحابسون عليه. ويتحامسون هو وايّاهو. ابن درويش يقود له سربة من هنا وابن شرار بالمثل يقود له سربة من هناك. يوم

ضيّقوا بهم الرجال وهو يقوم لك صنيتان ينخى ربعه: بني رشيد ياربعي! اليوم ما غدى به! احتموا ركابكم! فكّوا اباعركم! وليا قولة ثامر: أهلكم لا شانوا بوجيهكم. شَلّ القوم واقفى، أعطى هزيمه. لا ياشين ياثامر! قال: اليوم من ايامك انت، انت وربعك اللي يستاهلون غطوى، اليوم انا ما استاهلها. ياثامر، ياثامر، ياثامر. ثامر ما هو صاقّ، ما هو كابٍّ ربعه. قال: ما والله احوّل، ياكود تجي طلقة من هالمطران براس دهلوس تفكّني منه يخلّي لي غطوى. قالوا: أبْك حوّل والعلم مردود، والله لا عن ياصل العلم غطوى. حوّل عاد وفكّهم. حوّل وحوّلَوا الردفا. المركي الايسر تناغطت عليه بني عبدالله، رْكضَوا عليهو بني عبدالله وذْبَحَوا خيلهو بني رشيد، ما خلوا الا القليل. ذبحوهن وهم قاعدين، منوّخين جيشهم. سبع واربعين مكعكعه اللي والله هذانا بليلة مباركه ان شيباننا يقولون والله انه ما يطير الطير بينهن، انه ما تْحَمله جنحانه غير من هذي على هذي، يحجل عليهن، وردن جميع ولا فيهن اعوذ بالله اللي نْكِسَت، سدّحوهن. إلهن مع مدراج، محدار. يوم وردم عليهم. ويقصد عاد الله يرحمه ابوي. امرحوا بني رشيد على الما ومطير والله ما ذاقوه الا من باكر يوم رحلوا عنه بني رشيد. وذْبَحوا خيل مطير وانكسروا مطير. ردّوا بعض اباعرهم وبني رشيد راحوا ببعضها. يقول عاد ثامر:

لا عِـــدْت يايومٍ على تالي الجـــيش بايمن شعيب الحِسو فوق الثمايل

الحبسه صارت على الثمايل، الثمايل قراح وهذاك ملح.

جونا كما العسكر فزوع ابن درويش وابن شرار وكل سَمْو القبايل
جونا على قبٍّ سواة القرانيس بحظونهو يازين روس الاصايل
جونا وجيناهم سواة الدراويش هوش النشاما للنشاما هوايل
لولا القفوش مْعَ العيال النواحيش رحنا ولا عنا عريبٍ مسايل
نثني خلاف اللي بقينه عوابيش يوم الردي ضاقت عليه المحايل
لعيون من رمشه كما صفّة الريش رمشه جديد ولا برمشه سمايل

ما قال ودّه الدكتور يقص عنها البثره.

ياما ثنينا بالعيال المداغيش لولا الفعايل ما عْرِفَتنا القبايل

وهو يسكت الله يرحمه. والقصيده تجي جهز، مذبوحةٍ فرسه هكالنهار. لما سمعها جهز قال: أووووه، والله ان ثامر قصد ولا قصّر، عد الصحيح، مير غَرّ له عن بيتٍ ما الحقه لكن انا ابساعده به، اللهم اني معينه بهالبيت، هالبيت عونيّةٍ مني لُه ودّوه لِه، سلّموا لي عليه وقولةٍ له لزوم يِلْحِق هالبيت:

تريّحَم من كدّهن ياحواشيش تَحَلّبَوا للي لهن من عدايل

مجمّعات البل، الخلفات اللي هم يحلبونهن لخيلهم اللي ذبحن قاموا يشربون حليبهن هم. الله يرحمهم ويتجاوز عنهم ولا يعيد هكالوقوت ويعز الاسلام والمسلمين وآل سعود يطوّل عمارهم. هاه، وهم مقفين جهز ابن شرار لحق دهيليس على فرسه ودهيليس منقطعة به ذلوله. قال جهز: بوجهي ياراعى الذلول، حوّل على رْقِبْتَك. دهيليس محوّلينُه عن الذلول ويطردها عيّت تظهر عن الخيل وجهز يبي يمنعه وياخذ ذلوله. دهيليس ما ربَع له، ما ناباوه. قال: بوجهي على بارودك والذلول. ما ربَع له دهيليس. ولْيا دهيليس متلطّم ويشوف ان بني رشيد يبون ينوّخون والا كان يجنّب عن الذلول، مير يشوفون ان ربعه نَوَوا ينوّخون. والى الخيال ما يِرِدْ على الطماعه وهو يشوف عندها بواردي، يشح بالفرس، يخاف تذْبَح فرسه. دهيليس متلطم. يوم شاف ان الخيال ما هو وارد عليه، الخيل مردْفةٍ له، قبل الذبحه، يوم شاف ان الخيل ما هي وارده ودهيليس يجنّب عن الذلول. يوم زل عنها ويورّدها عليه جهز، على دهيليس الدويّخ، يرخي الحبال جهز يبي

ياخذ الذلول قبل الخيل اللي مردفةٍ له. ويتقعّد له دهيليس يوم زان له المرمى وهو يثور بالفرس، سريويلِه، يطقّه وليا هي منخدمه، فرس جهز ابن شرار، يا كادّةٍ بالقاع، يضربه والى مصرّمٍ عضوده تحتِه، سحب جهز رجله من تحتها طايحه. الذبح صار قليل الا بالخيل. المركي الايمن ما جاه احد، الردفا، قْهَرَوا واحتَرَوا خوياهو رِجِل واركبوهو. عاد يقول جهز، جاز له فعل هالوليده:

لى واجـــوادي عند قـــشـــرا دهيليس رصّـــيـــتـــهـــا يوم ان مـــا الله هداني

قشرا دهيليس ذلوله. دهيليس يطردها ولا هو مجنّبٍ عنها والخيال طمعٍ بها.

وقـــعـــد لهـــا اللي ضـــاريٍ للنوامـــيس عـــــز الله انّه من مكانه كـــــواني

قـــعـــد لهـــا ولد الرشـــيـــدي بلا قـــيس عـــفـــيت يمينه يوم هو مـــا هداني

قولته بلا قيس يعني بلا عيار، صرمها فيها صرم. وقولته يوم هو ما هداني يعني يوم هو ما طاوعني يوم اضفيت عليه المنع. جايزٍ له فعله انه متلطّمٍ ولا ناباه يوم اضفى عليه المنع.

هذولا سلّمك الله مطير على شباط ابن درويش اخذوا طرش لنا عزيب، أخذوه من المرعى، من الفلاة، من قاعة الاسمر اللي ورا البنانه. والى تْخَبر مطير، حمران النواظر، ندخل على الله عَنهم، معَشّية الطير. أغاروا على الطرش من ايسر البنانه ويحيلون بها. وليا العرب، عربنا، على القحصيه، هكالوقت ما هْنِيها قاعيّه، ولا هْنِيها بَنانَه، ما بِدّعَن هكاليوم، ويفزعون ويلحقونهم. ويشمون الفزعه، مطير شمّوا الفزعه، ويطردون الفزعه ويتقفّون البل. صايرينٍ على البل طابورين مع ايمنها ومع ايسرها وناسٍ تحوش البل، خيل وجيش. ويلحقهم الله يرحمه ابوي ثامر ابن سعيدا على فرسٍ لابن عجوين يسمونه الحرقا. قال: قصدتك الفرس. قال: ابشر. ويركبه ويلحقهم. فرسٍ مرهيةٍ بالجري، سابقٍ اصيله، تْطَبِّح من مرابيع النجوم. ويجنب عنهم ثامر. وهو يضرب البل عرض وهي تقطعهم. وليا هو فاك البل – فكه الله ثم هو. وينخون مطير: تكفى ياشباط، ابا العادات! تكفى ياشباط، اذبح الخيال! اضرب ياشباط الفرس ياراكبةٍ راسه، يامْجَلْمْدَه، وهي تْعَفِر تحت ثامر. وليا البل بمواقفها. اظهرهم ثامر عن البل وافتكّها ويجيب فرس وذلول. قال: هذولي لك يابن عجوين عن فرسك اللي ماتت. قال: عساه فدوةٍ لك. يوم عوّدت الفزوع على اهلهم قالوا اللي فكّ البل ما هو ثامر لحاله، حنا معه. يقولونه الفزعه اللي مطرّدةٍ من اليوم. قال ثامر يركي على شباط:

واســـابقي ياشـــبـــاط حـــمـــرا مـــحـــلاه من كـــونكم ياشـــبـــاط فـــيـــهـــا ضـــرايب

رصّـــيـــتـــهـــا من دون ملحـــا مـــزهّاه لين اعطبـــوهـــا مـــحـــتـــمين الركـــايب

ياشـــبـــاط تفـــرق هوشنا وانت تاراه بيـــوم به المركي على الهـــوش عـــايب

يوم ان كل يلتـــــفت لك وينخـــــاك يوم ان بك الحـــمـــرا خـــلاف الركـــايب

ياشـــبـــاط هذا الهـــوش مـــا هو مناجـــاه بيني وبينك كنه الســـــمن شـــــايب

ويرسل له شباط ابن درويش هالبيتين يشهد له يقول:

ان كـــــان هو راعى الجـــواد المحـــلاه ودك عـــلـــى يمـــنـــاه يـــرخـــى الايـــدام

قـــولوا لغطوى بنت حـــامى المخـــلاه تشـــــوم له لو هو بدرب الحـــــرام

قال: سلموا لي عليه وقولةٍ له والله لولا الله ثم هو انّه بحظّنا حنا البل عن حظ اهلها، مير إهْو اللي افتكّها منا، لا يغابشونه الفزعه تراهم والله منْجِعْفٍ وثرهم لولا الله ثم لولاه. الله يرحمهم جميعهم ويتجاوز عنا وعنهم ولا يعيد هكالوقوت القشرا ويعز الإسلام والمسلمين ويحسن العاقبة ولا يغيّر علينا نعمة الإسلام.

وأحيانا نجدهم يكرمون الغزاة إذا وقعوا في أيديهم ويحتفون بهم، خصوصا إذا كان الأسير شيخا معروفا أو فارسا مشهورا، كما فعل قاعد ابن جرشان، أحد

شيوخ البقوم، مع بخيت ابن ماعز العطاوي، أخو شليويح في قصة معروفة. وروى لي سعيد ابن عواد الذيابي الروقي القصة التالية التي جرت على بخيت ابن ماعز مع الشيخ مقبول ابن هريس:

هذي قصه جرت على الشيخ مقبول ابن هريس، شيخ الشلاوى، وبخيت ابن ماعز العطاوي، اخو شليويح. غزوا الشلاوى مع شيوخهم مقبول وشيخهم الاخر نهاض ابن مْهَلّج الشلوي وعقيد القوم هكاليوم مقبول ابن هريس. غزوا يبون الروقه على كشب، شمال المويه ورضوان، قْريّب منها، ما هو بعيد عنها، حرّة كشب هذي هاللي فيها مرّان وفيها دغيبجه وفيها ام الدوم وفيها الحفر والمويه القديم، بادنى الحجاز، بين الحجاز وشفا نجد، في عْلُوّ نجد، من فوق الدفينه. غزوا الشلاوى ولاقوا لهم فريقٍ من الخراريص. الخراريص، طال عمرك، من ذوي عطيه من الروقه شيخهو هكالحين صنهات الخرّاص وعْليثه الخرّاص. فريق الخراريص اللي لاقوهم الشلاوى شْوَيّيين، ما هم كثير، حول العشرين أو الثلاثين، ما يْتَعَدّون الثلاثين نفر. خيّروهم الشلاوى، خيّروا الخراريص، قالوا: امّا تقاسمونا حلالكم اللي معكم والا نبي نذبحكم. يوم شافوا الخراريص انهم ما لهم قدرة على القوم، على الغزو، عطوهم نصف حلالهم. تناصفوا الحلال واقفوا عن بعضهم ببلا هوش.[1] يوم جا بعده بسنه، على الحول، غزوا الشلاوى غزوٍ جديد، يبون الروقه. وهم عارفينٍ عن الروقه وعن منازلهم، يدرون عنهم انهم قاطنينٍ على ما مرّان أو شمالٍ من مران، في كشب. عقيد الشلاوى هكاليوم هو مقبول ابن هريس ونهّاض ابن مْهَلّج. يوم اقبلوا على ما مران اللي مذكورٍ لهم ان الروقه نازلينٍ عليه والى ما عليه احد، الروقه كانوا قد شدّوا من مران ونزلوا على ما الحفر، الحفر شمال مران تقريب ثلاثين كيلو. والله وياخذ لك مقبول وربعه اللي معه اربعة ايام نازلينٍ على مران، بديار عتيبه، شابّينٍ لك نيرانهم ويحمسون قهاويهم ويدقّون نجورهم، ولا احتسوا الروقه ولا ذلّوا منهم. روّح مقبول له سبر يقفرون له الارض ويدوّرون العرب والبل. راحوا اليوم الاول واليوم الثاني ما لقوا احد. اليوم الثالث جَوا مقبول قالوا: يالامير امسح وجهك بالفود ابشر بالبل وابشر بالعرب. قال: وين القوم؟ وش كثرهم؟ عساهم يْطَمّعون؟ قالوا: يطمّعون، لقينا البل مغاتير، ولقينا البل مجاهيم، والعرب بالمخاضير. المخاضير أوديةٍ هي هذي من دون الحفر. العرب نازلين بالمخاضير. قال: اجل انتم ياقومنا ارحلوا يالله هالحين نبي نمشي عليهم، نبي نصبحهم صباح وناخذ البل. مشوا يوم وصلوا حروتهم بالليل نْزَلوا يبون يصبّحونهم صباح. الروقه جاهم من جاهم وانذرهم. والله واحتزوا القوم، استعدوا لهم. ردّوا الروقه الراي بالراي: إلا نْهَجدهم بالليل، نبيّتهم بيات، إلا نصبحهم صباح. قالوا الا نهجدهم بالليل هجاد. هجدوهم واعانهم الله عليهم وذبحوا منهم اللي هم ذبحوا ومنعوا اللي هم مْنَعوا. من عرض اللي هم ذبحوا هكاليوم من الشلاوى نهّاض ابن مْهَلّج براسه. ومنعوا اكثرهم والباقين هجّوا، شردوا. يوم ردّوا العتبان لبيوتهم وشبوا النيران وتعَرّفوا وجيه الرجال، المْنَعا، والى والله احسن ما يشوفون وجه مقبول ابن هريس، ربيط، مع المْنَعا. يوم عرفوه وبساع يقومون ويذبحون له البل وكَرّموه الرجاجيل واعزّوه وحْشِموه. قال عاد بخيت قصيدته.

(١) فيما يخص هذه الحادثة يقول ابن عبيد "جرى لمقبول وقائع كثيرة مع عتيبه فمن ذلك أنه غزى بغزوان كثيره وأغار على صايل الخراص عند جبل يسمى الرجم وهو بين الخرمه وبين امّيه هكران فحاصرهم فارسلوا له من يفاوضه بالصلح بينهم فابى بعد معركه قتل فيها عدة رجال وقتل فيها اربعة افراس. وكان مع العرب بخيت اخو شليويح اتاهم زائرا لاخته سكرا وهي زوجة صايل الخراص. فبعد ما تغلب عليهم مقبول ابن هريس اتفق معهم على قسم حلالهم الذي بايديهم بالمناصفه نصف يعطوه مقبول ونصف يبقى معهم واما البيوت وما تحتها فلم يلتفت اليها وابقاها لهم" (عبيد: ٢٣٠).

وهذه قصيدة بخيت بالمناسبة (وقد عدلناها حسب رواية الأستاذ عبدالله بن رداس في كتابه شعراء من البادية):

انا احمد الله ساع نومي هنانا ... يوم اقتضانا في قطيع الخراريص
نهّاض خلّي طايحٍ في نحانا ... ومقبول غب الكون يتلى المناقيص
تدفّق دْمَيّهم من يدانا ... من فوق قبٍّ كنّهن القرانيس
اربع ليال مْخَيّمٍ فوق مانا ... باهل الحجاز منقّلين المهاريس
يشب ناره وزننا ما احتزانا ... قِل عنك ياشبّابها ما معه قيس[1]
راحت على اللي يذبحون السمانا ... حمّاسة البن الخضر بالمحاميس

ويورد ابن رداس رد مقبول على بخيت:

جانا من الروقي جوابٍ هجانا ... بخيت مروي مرهفات العبابيس
من لابةٍ يروون حدّ السنانا ... ليا التقت خيلٍ وخيلٍ مراويس
ليا اقبلوا يرخون حبل العنانا ... والى اسندوا ما يبعدون المراويس
فرح بهيّة ساعةٍ من زمانا ... والفود منّا خمس هجنٍ حراسيس
وش انت خابر يوم هكالمكانا ... يوم انت عوّذت الشياطين وابليس
يوم انت فارقت الظعن والمبانا ... وحم الشعاف ولابسات المواريس[2]
الصادره ما جاك منها الحنانا ... والوارده نعجل عليها المراميس
نتلّكم تل الرسن للحصانا ... اللي مساميره ببيضه غواطيس
ودموع اخو سكرا سواة الغشانا ... صابر على ما به من الغبن ومكيس
لا بد من نمرا تجي مع بيانا ... اطرافها تاطا الغبا والطعاميس
لو نحسب اللي فيكم اول وثانا ... ما يحسبه كود القلم والقراطيس
وشيوخنا من مات منهم جْنانا ... واللي بقى بِلْحق عليك المقابيس
الغِلْب ما يثني ياكود الهدانا ... والا غلامٍ ما يعرف التقاييس[3]

ويكمل ابن رداس (١٣٩٨: ٨٧-٩) القصة كما يلي:

أخذوا يداعبون الشيخ مقبول وهو في أسره عن طريق الاعتزاز بالنصر عليه وقالوا (هل تغزي بعد هذه النوبه ياشيخ مقبول؟) فأجابهم حددوا موعد ومكان معين وازبروها يعني الابل ومعها فرسانها (والله لغزي وانا ما بعد حطّيت زهاب ذلولي من عليها)- فواعدوه على مكان يسمى (ابرق الجلبه) وهو مكان معروف في نجد واطلقوا سراح الشيخ مقبول وجاءهم بفرسان بني الحارث فوجدهم على وعدهم ومعهم الابل وفرسانها ودارت المعركة وفي النهاية حالف النصر الشيخ مقبول وأخذ الغنائم ورجع وكان من جملة عتيبه فارس يدعى دليم الطر من الروقه تألم لهذا الموقف فتمثل بهذه الأبيات:

يوم ابرق الجلبه جرى لي عشيّه ... لى واهني اللي عن اسبابها غاب
جونا على ابن هريس قومٍ لظيّه ... على النقا ما هوب سرقٍ يالاصحاب

---

(١) **اقتضانا**: اقتضينا بلغة عتيبة. **المهاريس**: جمع مهراس، أي الهاون الذي يسحق فيه البن. **ما احتزانا**: لم يحسب لنا حساب. **ما معه قيس**: غير بصير بالأمور، يعوزه الفهم.

(٢) يشير في هذين البيتين إلى غارتهم على صايل الخراص وقومه حيث كان بخيت حاضرا تلك الوقعة.

(٣) **أخو سكرا**: شليويح وأخوه بخيت كل منهما يعتزي بأخته سكرا. **الغشانا**: المطر. **مكيس**: ذليل وخاضع. **الغبا**: منخفضات الأرض. **الطعاميس**: مرتفعات الأرض. **الهدانا**: الذليل، الخامل.

جـــونا وجـــيناهم على مـــخـــبـــريه ... وصـــار المصـــاحب بيننا علط الارقـــاب
ليـــا اعـــتـــزينا عـــزوة المزحـــمـــيـــه ... نـــادى مـــنـــاديـــهـــم ألا آلاد حـــطّـــاب
وليـــا خـــذوا شـــيخٍ خـــذينا لديه ... والبـيض عـقب الكون شـقّن الاجـيـاب
راحـــــوا ورحنا كلنا بالســـــويه ... إلا الدبش يفـداك يامـرذى الاطلاب[1]
ياليت يوم الله جلبـــــهم عليـــــه ... ان بندقي مـــــسلوبةٍ كنهـــا الداب
مـــا هيب جـــبـــعـــا عـــزرةٍ في يديه ... ارمي بهـــا رميٍ كـــثـــيـــرٍ ولا صـــاب

وعندهم عادة تسمى العقلا وهي أن المغلوب أو زوجته أو أحد نسائه أو أطفاله يتبع الغزاة ويطلبهم أن يمنّوا عليه ويردوا عليه شيئا مما نهبوه منه: **العِقْلا يالاجواد**، وما يمنحونه له يسمى **رِفْده**، أو **حَذِيّه** ومن أقوالهم: **كسب البنات عقلا الحلال**. يقول العبيد في معرض حديثه عن هذال ابن فهيد الشيباني:

> وكان هذال (بن فهيد الشيباني) معطافا متلافا يعطي الخيل والجيش والأبل ومن مغازيه غزى يوما على حرب واخذ عليهم ابلا واغناما كثيره فاتته امرأة من أهل الغنم فقالت (الحذيّه ياهذال ارفدني ياخو هملا من حلالي هذي غنمي اللي تساق) واشارت الى رعيه من احدى الرعايا فقال لها الحقي غنمك ثم الله عطاك ما لزمت يدك ولو حضنتيها كلها حضنا فاخذت تجمع روس الغنم بايديها وتضمها على صدرها فاذا رأتها قليله افلتتها تريد ان تضمن اكثر منها فتكررت منها مرارا وهو واقف ينظر ويضحك والغنم محجوز اولها عن المشي فلما فحمت وتعبت قال سوقي الرعيه كلها لك فاخذت تاخذ اقدامه وهو راكب على مطيته فتقبلها ثم شكرت له وساقت غنمها (عبيد: ١٢١).

ويقول أيضا في معرض حديثه عن ضيف الله ابن عميرة من فخذ المغايرة من ذوي عطية من عتيبة:

> وكان في بعض مغازيه قد أغار على عربان من بوادي حرب على ماء يسمى العرفجية في طريق المدينة للمسافرين من القصيم فأخذهم جميعا ولم ينج منهم أحد وكانوا مجتمعين فيها بكثرة وكان حرب يسمون تلك الوقعه سنة حطة الاوثار اي ان الوثر حذف في الارض فلم يجد ظهر بعير يرحل عليه ومعناه ان الابل اخذت كلها وكان البدو اذا دعى احدهم على الثاني قال له الله يحط وثرك وكان رأيس هذه العربان المذكوره ضيف الله بن عقاب الذويبي وكان زعيما شجاعا كريما فكانت عربان نجد كلها هذا دأبها من وجد الثاني في غرة اغار عليه وسرق ابله لانهم يرونها احل من الفقع وكانت القبيله اذا اغار عليها عدوها تقول بيّض الله وجه فلان يعني زعيم القوم اذ انه لم ياخذنا الا على وضح النقا اي انه وجهه خالي من لزمتنا لم يغدر بنا واغلب ما يجزع منه الاعرابي من ضده هو الغدر اذا عامله او جاوره او امنه فهذه هي الخصال التي لم ينساها البدوي من نظيره الثاني اذا اخذه بعد ان امنه باحدى الخصال التي ذكرناها قال فبعد هذه الوقعه ركب ضيف الله الذويبي قاصدا ضيف الله بن عميره يستعطيه شيئا مما اخذه منه تفضلا منه بما يعطيه وهذه عادة البادية فوصل اليه وهو على ماء يسمى سجا فاناخ عليه واكرمه وطلب منه الرفده فقال ابن عميره انا ارفدك يالذويبي ولكنك تروح لمحمد بن رشيد وتغزي به على عتيبه فقال له الذويبي يابن عميره ابن رشيد حاكم نجد وغصن جرار اذا غزا غزيت معه

---

(١) **عشيه**: معركة مهولة وقت غروب الشمس. **لظيّه**: متعطشون لدمائنا مثلهم مثل النار التي تتلظى لتحرقنا. **على النقا**: لم يغدروا بنا. **بوق**: غدر. **على مخبريه**: وفق اتفاق وتفاهم مسبق. **علط الارقاب**: الرماح، كناية عن طولها. **لديّه**: مثيله وقرينه. **يامرذي الاطلاب**: مدح للمخاطب بأنه إذا أغار على قوم وسلبهم وهرب أتعبهم وأرذى ركابهم فلا يستطيعون اللحاق به لقوة عزيمته.

انا وكل حرب طوع والا كره ولا لك علي شرهه في ذلك فقال له ابن عميره صدقت ترى رفدتك من عندي زمل بيتك وكان عدده ٢٥ جملا فقال له يابن عميره تجملت ولكن بقى لي عندك كماله فقال وما هي فقال هي عبدة لامي محرّصتني عليها اني لا اجيها الا وهي معي وهذه العبدة نفسها قاعدة في بيتك فقال والله ياعبدتك فلا لي فيها ملك قد اوهبتها لامي فقال يامّ ضيف الله خوذي زمل ولدك اللي اعطاني واعطيني عبدة امي فقالت له يالذويبي الا فرقاك انت وزملك وعبدة امك تستاهلها (عبيد: ٢٩٨-٩).

وهذه سالفة رواها لي معلّث المقوعي الرشيدي:

المقوعي صار بينه صدامات ومْقاومات هو وايّا عنزه، المقوعي، عويض ابن سالم المقوعي، نْذَرَوا عليه عنزه سبع فِطّر، وفعلا ذْبَحوه واوفوا نذرهم الرجاجيل. مْسكَم عويض وعويضه الاخوه وذْبَحوهو. نوّخوا الجيش، عويض وعويضه، وقالوا لخوياهو: اقعدوا عندَه، عند الركايب، وحنا نبي نْهَوي، خابرينٍ لنا مْعَذَر خيل هْنِيْ. أثْر العنوز دارينٍ فيهم، خابرينهم ومْسَبّرينهم الرجاجيل. صكّوا فيهم وذبحوهم. صار عاد علّوش ابن عويض أقشر من ابوه. قال انا اللي ذْبَحَوا ابويه ما اجَنّب عنهم. وقام ياخذ عليهم غارات. جاه من جاه قال: ياعلّوش! قال: آه. قال: عمْرات، نْياق فاعر ابن رْبيعَه، قالوا له ربعه: نْياقك عَمْرات لا ياخذهن علوش المقوعي. قال: واقوم! كل عْنزه بيني وبينه، ما هو مِتْعَدِّيهم، ما هوب مْتَخَطْريهم كلهم وجايٍّ لِنْياقي. يوم سِمِع علّوش هالكلام أغار على البل وتقَفّاهن. وافقت إن راعيهن فاعر الرْبيعَه هكالليله معْرِس وصار عنده رقص ولعب واخذوا البل من المْعَشّا. فقَد البل يوم اصبح، يوم جا مراحه ولْيا والله ايدُه والخلا، ماخوذات. هذا مجدال الرجاجيل يشوفه ولْيا راعيهن معهن. وهو يْتقَفّاه رجْلي. يوم فَكّر ولْيا هذا الراعي ناطْحُه على قعود. قال الراعي: والله البل أخذهن علوش المقوعي. قال: علوش؟ قال: علوش، عطاني والله هالزماله وْرَوّح بهن. قال: والله انا أبَتقَفّاهن، ما عقب عَمْره حياة. والى علوش اهله بالحويّط وعندهم ابن شلاح المطيري هكالحين مْحَقّق للباديه، طاغوت. هالقصه جتنا من ابن شلاح. يوم امسى الليل بَيّت بيت علوش بالليل، أنت يالعنزي، ابن رْبيعَه الخمشي، وبات على الدلال. يوم اصبح علوش ولوّذ ليا هذا الرجّال. قال: انت وش انت؟ عسى ما انتب ابن رْبيعَه؟ إلا ابن غبيره، ويقولون انك ولدٍ طيّب وان كسبك ما هولك وانا استَحَذيك من عرض خلق الله اللي يْتَحَذّونك. ليا شدّوا البدو باكر خلّوا ورعاني تصايح ما عندهم زمايل من اسبابك ياشيخ، عَطْهُم زمايل. قال: حسبي الله عليك، قم ترى الله عطاك اربع؛ ناقتين وجملين. عاد يقول العنزي:

البارحه هبّت هبوب الشمال ... برده يْذَرّف دمعة العين تذريف
وانا بْحِضْن التِرف زين الخَيال ... مْكَيّف عند اريش العين تكييف
وجانا المقوعي فوق حيلٍ جْلال ... واخذ نْياقٍ مكْرمات مشاعيف
وفرّيت ما يجري لك اللي جرى لي ... آطا على صم الحصا والحجاريف
وقالَم سرن في ليل ياهمّلالي ... مير انحرف ما لك بروحك تصاريف
أقفى عليهن شوق زين الخَيال ... مع سهلةٍ تذرى عليها العواصيف
ولحِقْتهن دون الحوَيّط لحْالي ... ومن دون عمره طَرّف العمر تطريف
وقعدت وسط البيت فوق الدلال ... مستيسرٍ ما لي بروحي تصاريف
وطلبت من ريف الركاب الهْزال ... رحايلٍ للبيت من مكرم الضيف
قام وعطاني وزعةٍ من حلالي ... عزّ الله انَّه تَوّ ما جَت على الكيف
أبي لْيا جيت المِرِه والعيال ... أشْتالهم عن دجّة البدو بالصيف[1]

(١) **قالم**: قالوا بلهجة بني رشيد. **ياهُمّلالي**: تقال للتعبير عن اليأس وبُعد المنال. **انحرف**: عاد وانصرف. **أشتالهم**: أحملهم.

التدابير والإجراءات السلمية

الحروب والغارات والغزوات ليست هي الاعتبارات الوحيدة التي تحكم علاقات القبائل بعضها ببعض، بل إن هناك الكثير من التدابير والإجراءات السلمية التي يمكنهم الاحتكام لها للحد من وتيرة العنف. من هذه الإجراءات **العاني والعلقه والملحه والعمله والحسنى** وغيرها. فالحياة البدوية بطبيعتها تمتلك من الآليات ما يمكن القبيلة المنهوبة من النهوض من كبوتها واستعادة منهوباتها بالطرق السلمية عن طريق اللجوء للأعراف القبلية بدلا من شن غارة مضادة. من ذلك أن صاحب الإبل المنهوبة له الحق في استعادة إبله لو أثبت أنه مرتبط باتفاق سلمي، مثل **العاني** أو **العلقه**، مع أحد أفراد قبيلة الغزاة أو أن أحدا من أفراد قبيلة الغزاة سبق له أن شرب من حليب الإبل المنهوبة في اليوم الذي سرقت فيه، وهذا ما يسمونه **ملحه**. ويورد منديل الفهيد العديد من أمثلة الملحة مثل حادثة الدواسر مع نهار ابن شري وجماعته من المساردة (فهيد ١٩٨٣: ١٧٢) وحادثة العبيّات من مطير مع ابن رمحة العتيبي من الحناتيش (فهيد ١٩٩٠: ١١٣-٤). وهذه حادثة أخرى من حوادث المالحة يرويها منديل الفهيد:

> من قوانين المالحة أنه لو أن عابر سبيل مر بعرب وشرب من حليب إبلهم ثم أخذت ولبنها في بطن ذلك العابر "**الطرقي**" فإنه يؤديها إذا كان الآخذ من قبيلته. أما إن أطعمه أهل الإبل لحما فهو غارم لها إن أخذتها قبيلته خلال أسبوع.
>
> سير رجل مطيري على أخواله من عتيبة ولما عاد من عندهم أعطوه مطية ووضعوا وسمهم على عصا معه حتى لا يتعرض له أحد من عتيبة بسوء. وأثناء عودته مر بعتيبي من العضيان حلب له من إبله وسقاه. وبعد ذلك أغارت مطير على إبل ذلك العتيبي ونهبوها. ولم يكن العتيبي يعرف اسم ضيفه المطيري الذي سقاه اللبن وكل ما عرفه أنه من ذوي عون. فقال أبياتا يعم فيها ذوي عون ويهيب بهم لاسترداد إبله، قال:
>
> لي هجمة فيها المطارق تلوح ... في كل بادي صبح تنخى ذوي عون
> حنّي بصوتك يالفتاة الطموح ... لين ان اهل عوج المراكيض يوحون
> ذكرتها عند انتشار السروح ... وذكرتها واهل المجمّع يحلبون[1]
>
> فأرسل المطران إلى راعي الإبل العتيبي وطلبوا من شيخهم ابن شرار الخصومة عند ابن ثعلي قاضي عتيبة لكن العتبان فضلوا التقاضي عند ابن شلاح، قاضي مطير. والعادة في مثل هذه القضايا أن صاحب الحق هو الذي له الخيار في اختيار القاضي الذي يريد. فلما حضروا عند ابن شلاح قال لشارب الحليب: ياولدي لا تحرم مطير من كسبها ولكن لا تحرم العتيبي من حلاله بالكذب، عليك بتحرّي الصدق فإنك تسلم ولن تندم. وطلب القاضي منه أن يقسم قائلا: والله العظيم ان أباعر العتبان يوم صابتها قضيتها ان في بطني ملحتها اللي ما زلّت حزتها ولا قطعتها بثالثتها. وأقسم المطيري فأعيدت الإبل إلى صاحبها العضياني (فهيد١٩٩٠: ١٠١-٢؛ ١٩٩٥: ٤٩).

وهذه قصة أخرى طريفة من قصص الملحة يرويها محمد العلي العبيد ويقول إنها جرت في عهد إمارة زامل السليم:

> صدف ذات يوم من الايام ان جاد الله على البلاد بغيث غبيط فاوضعوا اهل السانيه عن

---

(١) **المطارق**: وسم قبيلته. **أهل عوج المراكيض**: الرجال الشجعان المندفعين بحماس يقرب من التهور. **المجمع**: مفردها **مجمعه** وهي الخلفة التي يتركونها بدون حليب حتى يجتمع حليبها في ضرعها ليحلبوها للضيف والطارق.

سانيتهم واظهروا ابلهم للبر. وكان من بينهم ارشيد الدغيثر المشهور صاحب الدغيثريه قد اظهر ابله الى البر وعددها (١٦) ناقه. فصدف ان شمروخ بن صويان شيخ العرده من جماعة بن ربيعان قد صادف الابل وهي ترعى فاخذها. وكان في ذلك اليوم الذي أُخذت فيه الابل وعند زامل ضيف في القصر يدعى عبدالله الجلاوي وهو من الرباعين وقد تغدى من التمر التي في القصر وهو المعدود للضيوف. فلما علم زامل بمأخذ الابل وان الذي اخذها ابن عم لهذا فطلب زامل منه ان يؤديها بما اكله في القصر فقال مأكلي لك انت ليس لرشيد الدغيثر ان كان تحلف لي ان اباعر رشيد يوم اصابتها قرعتها ان في بطني ملحتها والا ما لك عندي شي يازامل لاجل احلف لبني عمي بحلفك انت يازامل والا فلا يؤدونها لي بدون يمين مني لهم. فذهب زامل الى الشيخ علي المحمد قاضي عنيزه يسأله عن ذلك. فقال له يازامل اليس مجموع تمر الضيوف اللي بالقصر من زكاة عنيزه. فقال له الا. فقال له اوليس زكاة رشيد داخلة في هذا المجموع. فقال له نعم. فقال له احلف له ولا تحنث ان ملحة رشيد في بطنك. ثم اتا بها كامله (عبيد: ٢٧٢-٣).

وهذه حادثة أخرى من حوادث الملحة يرويها العبيد ويقول إنها حدثت في سنة ١٣٢٨هـ مع الشيخ عواد ابن فلاح الذويبي من شيوخ بني عمرو من حرب حينما ركب من أهله قاصدا عبدالعزيز بن سعود بالرياض.

فلما كان في عرض الطريق وجد إبلا عازبة عن أهلها وهي لذوي بدير من مطير بني عبدالله وهم من جماعة محمد بن حوكه وكان معه خمسة من عشيرته فأوقف على اهل الابل وطلب حليب منهم كعادة المسافرين فاسقوهم جميعا حتى اكتفوا فمشى في طريقه هو واصحابه. فلما غاب عن الانظار قد اغاروا على الابل واجتاحوها جميعا فلم يسلم منها سواء جمل صغير وكان المغير هذا يدعى نافل بن غميض وهو شيخ البيضان من حرب بني عمرو. فلحقه صاحب الابل وقال له يالذويبي معزّبتك التي شربت حليبها اخذوها حرب حينما اقفيت. فرجع معه وثار على ابن عمه نافل فقال له نافل نمشي انا وانت الى سلوم حرب. فقال له والله لئن مشيت معك الى سلوم حرب في معزبتي اللي ينطف شاربي من حليبها والله اني ما اسوى عند حرب هذه الرماده البارده، والله ان تدّيها وانا ما قمت من مجلسي هذا. فلما عرف الجد ادّاها واستلمها صاحب الابل كامله غير منقوصه (عبيد: ١٧١-٢) .

والملحة عادة قديمة تعود إلى العصر الجاهلي حيث تورد كتب الأدب حكاية عن أبي الطمحان القيني أن أناسا سبق لهم أن شربوا من حليب نوقه سرقوها فقال يطلب منهم أن يعيدوها له بحكم أنهم مالحوها وارتووا من حليبها حتى استردوا عافيتهم ونضارتهم:

وإني لأرجو ملحها في بطونكم ... وما بسطت من جلد أشعث أغبر

ويروي الشيخ منديل الفهيد (١٩٨٣: ١٨٠) أن أحد البقوم استجار بسعيد ابن مقنزع من الحمارين من العصمه بوسيلة تسمى العلقه. وبعد مدة سافر البقمي فلقيه جماعة من العضيان وأخذوا ما معه فعاد إلى جاره سعيد وأثار نخوته بهذه الأبيات:

يافاطري حِنّي ونادي الحمارين ... وابدي لهم في كل راسٍ يبينِ
ان سنّدوا وان جوك من فرع مِنحين ... وان واردوك الما مع الواردينِ
خِصّي بها صامل نحاز المعادين ... لى درهمن به مسرعات القرين
ثم انخي الشفعان هم له موالين ... هم ولحقاهم كان هم جازعين

وخِـصّي جـزا حـامي عـقـاب المتلّين ليـا رفّـعـوا لقطيّـهـا بالمدينِ
ياولاد عـصـمـه يالرمـاة المتـاقين يامـا ايتـمن ايمانكم من جنين
ياعنك مـا انتم عن مِـثـارَه بمزرين والا ترانا نعـذر العـاجـزين

فسعى شيخ العصمه جزا أبا العلا في رد ما أُخذ من البقمي بتدبير حكيم دون حصول أي فتنة. وهذه قصة أخرى حدثت لسلطان المريبض العتيبي من الروسان (عصيمي ١٩٩٥: ٣٨٠). بينما كان سلطان مسافرا علّق جماعته على البصايصه من مطير وفي أثناء تغيبه عن جماعته نهبت منه ذلوله، نهبها غزو من الدياحين، فطلب من البصايصه أن يسعوا لأداء الذلول من الغزاة وقال هذه القصيدة ليثير نخوتهم:

لى ياشـعـيله وايقي راس مـزبان صـيـحي لْوَسّـام الهـلال أجـمـعينِ
انخي وخِـصّي كل من قـيل صـعـران بافـعـالهم كل العـرب خـابرينِ
وانخي ذوي عـالي دحـيم وسلطان وصـيـحي لماجد شوق مـوضي الجبين
وانخي ذوي عليـان عطبين الاكـوان هل فـرسـةٍ تعـرف وفـعلٍ يبين
يانايف ابن حـسين يرجـيك سلطان رجـوى غـريبٍ عن هله له سنين
وخـالد يجـيب الحق من كل دَيّان غـيـر الفـرود مْـوَلّمٍ زرجـتين

وإذا لم يستطع صاحب الإبل استردادها بهذه الوسائل السلمية فقد يستنجد بفرسان وأعيان قومه لاسترادها له إما بالتوسط وبذل الجاه أو بالقوة إذا لزم الأمر. فهذا أحد أبناء قبيلة بني رشيد سُرِقت ذلوله فاستنجد بفرسان وشيوخ بني رشيد ليسعوا في استردادها، ومن الذين نخاهم هديبان الجحيش وحنيّان الضعيّف، شيخ الشعيّب من المشاعله، ومرزوق المشوش المهيمزي وسعيّد الذكري الحربي، يقول:

واسـابقي تنخى الضـعـيّف حنيّـان لـو المردّف مـثـل طيّ القـليـبِ
والا على ذيب الغـداري هديبـان حـوّاف لين ان الثـريا تغـيبِ
والا فـمـرزوق المشـوّش على لان اللـي يـوردّهـن ديـار الحـريـبِ
والا سـعـيّـد شـوق مـيّـاح الاردان يامـا قطع من جل ذودٍ عـزيبِ

كذلك فإن القبيلة إذا أمحلت بلادها ليست مضطرة إن لم تكن قادرة أن تلجأ للقوة للرعي في مراعي قبيلة أخرى. إذا نزل الغيث على ديرة القبيلة "ربّعت" رياضها وفياضها وغطاها العشب وامتلأت الخباري والغدران من المطر. وإذا توفر المرعى للإبل اكتنزت شحما وكثر نتاجها وامتلأت ضروعها بالحليب وعم الخير وابتهج الناس. لكن إذا أمحلت "أخطت" ديرة القبيلة ولم يصبها الغيث أجدبت مراعيها "أمحلت" وتحولت إلى صحراء جرداء شهباء "مِسِنْيِه" ليس فيها ما تقتات عليه الإبل فتصبح هزيلة مما يؤدي إلى هلاكها ويعاني أصحابها أشد العناء. في هذه الحالة، ليس أمام القبيلة المنكوبة من شيء تفعله لتحسين وضعها إلا إما أن تلجأ إلى القوة لاجتياح ديار قبيلة أخرى أوفر حظا منها أو، في حالة عدم قدرتها أو عدم رغبتها في ذلك، أن تذهب إلى القبيلة وتطلب منها بالطرق السلمية أن تشاركها في مراعيها مقابل عدد يتفق عليه من الإبل أو الأغنام عن كل ذود تدفعه القبيلة المتضررة إلى

القبيلة الأخرى مقابل الاستفادة من مراعيها، وهذا ما يسمونه **تعليق العاني**، ويقولون في اصطلاحهم أن القبيلة المتضررة **تسوق الشاة** أو **تقود الشاة** للقبيلة الأخرى لتحصل منها على حق **الرِثْعَه** أو **الرتاعه**، أي ترتع بإبلها في مراعيها. وهذا مجرد اصطلاح لا يقصد منه تحديد عدد أو نوع ما يُدفع، فقد يكون المدفوع من الغنم أو من الإبل، وقد يفوق الواحدة عددا، كأن تدفع القبيلة المتضررة **العقال مثني**، أو كما يقولون في عبارة أخرى **عقالين على كل مراح**، أي ناقتين على كل مراح، والمراح هو المكان الذي تروح إليه الإبل وترتاح فيه ليلا أمام بيت صاحبها، ويقصد به هنا الذود بكامله. أي أنه ينبغي على كل صاحب بيت أن يدفع على حسب حجم ثروته من الإبل، أو الغنم.

تعليق العاني على المستوى القبلي يبرم بين شيخي القبيلة وعادة يشفع شيخ القبيلة المتضررة طلبه بهدية "هَدُو" من الخيل الأصائل أو الإبل النجيبة إلى الشيخ الآخر. يقول الشيخ محمد بن بليهد:

> حدثني عثمان الهاجري –وهو إمام يصلي بمحمد بن هادي وجماعته– قال: كنا مقيمين في فيضة وادي أوراط في العتك أيام الربيع، فجاء في يومٍ واحدٍ خمس من الخيل هدايا كل فرس واحدة مع وفد على حدَته يطلبون الجوار والامتداد في نجد، قال؛ وكنا يوما عند "المضباعة" أيام الربيع، فجاء "تركي بن حميد" من رؤساء قبيلة عتيبة، وأناخ عند محمد بن هادي بن قرملة يطلب الجوار، فسأله عن أهله، قال: تركتهم على ماءة بريم الماء المعروف في أسفل جبل حضن، وحدثني فراج بن طويق الحافي قال: كنا مع مصلط بن ربيعان، وأهلنا في ماء الشماس الواقع في حوى كشب، وأتينا ابن هادي ومعنا جيش وخيل هدايا، أتيناه على ماء الشعرا نطلب منه الجوار، فقال لنا: أنتم في وجهي ارعوا حيث شئتم إلا جبل النير، من دخله فهو خارج من الأمان الذي طلبه، وظني أن هذا الأعرابي يخشى أن يدخلوا هذا الجبل فلا يخرجوا منه (بليهد ٢/١٩٧٢: ١٢٠–١).

وخلال فترة العاني تقوم هدنة، أو ما يسمونه صِحْب أو عمله بين القبيلتين ويكفل كل شيخ جماعته ويتعهد بإعادة ما ينهبونه من القبيلة الأخرى. يقول الشيخ محمد ابن هادي مفتخرا بأن قبيلته تفي بالتزاماتها تجاه من تعطيهم العاني أو العمله:

عاداتنا لطم المعادي على النقا ... والا العميله راتعه ما نذورها

ومثله قول مريبد العدواني الذي شن غارة على أحد حلفائه لأن الحليف، واسمه عايض، نقض العهد الذي بينهما وأغار على أذواد شخص علّق العاني مع مريبد:

ياراكبٍ من فوق حمرا سْجِلّه ... تركز بحرّه واصل ابوها عماني
تلفي لعايض ريف من جا محله ... دويلان زبن الجيش لى جاك واني
والله ما جا حلفنا ما يفله ... ياكود بوقك ياقليل الحسان
أخذت عانينا على غير مله ... إلا ومع هذا قطعت العواني
جيتك بربعٍ ما سعوا بالمذلّه ... واصل القضا من مطلقين اليمان

ويمكن أن يتم اتفاق العاني بشكل فردي كأن يطلب رجل من رجل آخر صاحب منعة ونفوذ في قبيلته أن ينضم إليه ويرعى معه من مراعي قبيلته، أو كما يقولون **يْعَلّق العاني** معه. وعدد البيوت التي يمكن للرجل أن يحدّر عنوتهم ويرفِقَهم يعتمد على

قوة ذلك الرجل ومكانته في قبيلته، وقد شرح لي ذلك خضير الربوض في مقابلة أجريتها معه في منطقة الجوف يقول:

تحدير العنوه، يقال له محدّر العنوه. انا اجنبي رويلي انا وربعي نبي شمر تَرْنا بوجهك يافلان عن ربعك شمر، يمشّيهم مع كل شمر، سبع بيوت، الثامن يوخذ عليه شاة، وسبع البيوت لا ما يوخذ عليهم شي. الا ابن غازي من شمر يحدّر اربعين بيت، يوم هو يقول يوم سمع رجال الجربا وهم جالين عنده يقول لهم ياسمرمد:

العنك يارجلٍ بدارٍ تلزّيت ... مقلوبٍ اسمك مودعٍ سرمداني
عقب الشميط ورفعنا كاسر البيت ... وترحيب بالطرقي بعيد الاهالي[1]
رفيقنا ما هم فريقٍ ولا بيت ... خطو الجهامه نرفقه بالكمال

وتنتهي مدة الهدنة بين طرفي العاني بانتهاء موسم الرعي، بعدها كل قبيلة تنفض العاني على القبيلة الأخرى، بمعنى أنها تعلن تحللها بصراحة عن الالتزامات التي أخذتها على نفسها تجاه القبيلة الأخرى خلال فترة العاني. ونفض العواني هو الخطوة الأولى نحو إعلان انتهاء الهدنة والعودة إلى حالة الحرب بين القبيلتين، أو كما يقولون: رد البرا، رد النقا. ويعد من العار والبوق أن تشن قبيلة حربا على أخرى قبل أن يرسل شيخها إلى شيخ تلك القبيلة ينذره بحرب: يرد النقا عليه. هذا إعلان يطلقه شيخ القبيلة ليبرّئ نفسه من تبعة ما يحدث من أفراد قبيلته تجاه ممتلكات وأرواح القبيلة الأخرى وأنه يعتبر نفسه غير مسؤول عن إعادة المنهوبات أو تسليم المجرمين. بمعنى آخر، لم يعد من الممكن التقاضي بين الطرفين بالطرق السلمية وتحكيم الأعراف المتبعة أيام السلم.

وقد تستنكف القبيلة المتضررة سوق الشاة أو تعليق العاني لأن ذلك ربما يفسر على أنه ضعف منها. يقول الزناتي التويجري من قصيدة له يحث ربعه العمارات بعد هجرتهم إلى العراق ويطلب منهم العودة إلى نجد ويحرضهم على القتال لحماية ديارهم هناك وإلا فإنهم سيضطرون إلى سوق الشاة بما في ذلك من عار وذل:

إما حميتوا داركم سوقوا الشاة ... يسوقها اللي خاف من كل عايل

ويقول تركي ابن حميد مفتخرا بأن قبيلته لا تقود الشاة وإنما يرعون أذوادهم ويصلحونها غصبا من على ظهور الخيل المغيرة:

حنا إلى كلٍّ تمصلح بقوده ... نصلّح بقبٍّ كنهن الشواحيف

ويقول من قصيدة أخرى:

في نجد نرعى ما نعلق عاني ... بسيوف هندٍ ماضيٍ برهانها

ويقول سمير ابن فرحان السيحاني الروقي:

نرعى لقطعان تقز المقاهير ... ترعى مشاهيها بليا عواني

وفي نفس المعنى يقول شاعر مقاطي يرثي الشيخ محمد ابن هندي:

اميرنا لى كلٍّ اصلح بقوده ... يصلح بشلفٍ فوق قبٍّ مغذاه

---

(١) الشميط: الشحم.

ويقول خلف الاذن يصف هزيمتهم لبني صخر الذين اضطروا أمام هذه الهزيمة إلى ترك ديارهم والالتجاء إلى أهالي حوران ودفع الرتاعة لهم:

اللي نحـــر حـــوران قـــاد الرتاعـــه واللي تقلّع من ورا الهـــيش من غـــاد

ويقول عدوان القحاز الزميلي يمدح فهد ابن رمال:

خـــيّـــال ســـبـــلا والرِّفَق هزّة العـــود خـــيـــال ســـبـــلا يا ارزمت له وحنّه

وعبارة تعليق العاني مصطلح له صفة العمومية حيث يشير إلى أي اتفاق سلمي أو اتفاق حماية بين طرفين، سواء على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي. وهناك مصطلحات أخرى يستخدمونها تكاد تكون مترادفات مثل العِلْقه أو عْلاقه (من قولهم تعليق العاني) أو العمله، ويسمى أحد الطرفين عميل للآخر. ويعرف مَنديل الفهيد العلقة كما يلي " إذا أعطى شخص شخصا آخر جزءا من شاة أو نحوها وقال هذه علقتي عندك فمعنى هذا أن الآخذ ملزم بأن يرد للمعطي ما تأخذه قبيلته منه" (فهيد ١٩٩٠: ١١٠). وليس من الضروري أن تكون العلقه ذات قيمة مادية كبيرة، لأن المهم هو القيمة الرمزية التي تربط الطرفين بعلاقة تبادلية وتؤكد اعتراف من يطلبها بمكانة وأهمية من يمنحها واعتماده عليه وتبعيته له. فقد ذكر ابن بليهد أن قيمة العملة بين عماش الدويش ومحمد ابن هندي كانت وزنتين قهوة (بليهد١٩٧٢/٢: ١١٨-٩)، وبين ابن بليهد نفسه وهميل ابن مغلب الشيباني وزنة قهوة وعصا من الخيزران (بليهد١٩٧٢/٢: ١١٨-٩). وهذا مثال من أمثلة العلقة يسجله العبيد ويبين لنا أن القيمة المادية للعلقة قد تكون شيئا بسيطا لا يذكر:

> وقد لطف الله بعباده خصوصا الحاضره منهم سكان المدن والقرى حيث جعل الله لهم خفارة من الباديه يسيرون بها في القفار البعاد وتحميهم من ما يحاذرون منه. ومصلحة الخافر نزر قليل من المال فقد يكون يحول دون شيء كبير بشيء حقير كثوب أو عمامه أو عصى. فقد شاهدت ان رجلا من اهل عنيزه يدعى سليمان الحمد الدعيجي ظهر من عنيزه مع هبط من اهل ضريه فوصل معهم في ضريه واجّر معهم رفق من الدلابحه اسمه ملوح يسير معه في الخفاره عن قبيلته اعتيبه كافه. فمشى من ضريه هو ورفيقه قاصدا مكه ومع الرجل المذكور من المال ما يساوي ثلاثة آلاف ريال وهي كلها خاصه عبدالله الجفالي والرجل المذكور مأجور لعبدالله الجفالي. فصدف ان وافقهم غزو من مطير ذوي شطيط وليس معهم من مطير رفيق فأخذوا ما معهم جميعا وسلبوا ثيابهم. وكانوا قريبا من الشعب الذي يسمى شعب العسيبيات وكان على الشعب عرب من الروقه وهم المراشده الذي رئيسهم ابو خشيم. فكان من حسن الصدفه وسبب عقيلة هذا المال على اهله ان رجلا من المراشده يسمى مطلق بن عسير وكان هذا الرجل معه بضاعه يبيعها لعبدالله الجفالي. وكان هذا الرجل له جار من ذوي شطيط فصدف انه قبل مجيء الشخصين للعرب بيوم واحد وكان بيد مطلق بن عسير عصا خيزران تساوى ربع ريال فطلبها منه جاره المطيري الشطيطي فاعتذر قائلا والله ياجاري انها حلال الجفالي من بضاعته وليست لي والا كان اعطيتك اياها ولكن كان تبيها دخله ادخل عليك حلال الجفالي من مطير بني عمك فخذها فأخذها وحفل وكفل. فما راعهم بعد غروب الشمس الا والرجلين ينزلون عليهم فأخبروهم بما جرى وان الذي اخذهم بن مزنان الشطيطي.

فقام مطلق بن عسير على جاره وقال هذي السيره وهذي السيره ويلزم اننا الليله نسري ونطلبهم قبل ياصلون العرب فان وصلوا العرب قبل ندركهم تمزق الحلال الذي معهم. فركبوا وسروا بليلتهم وادركوهم قبل ان يصلون اهلهم بنصف يوم وردوا ما معهم بيمين حلفها المطيري لابناء عمه انكم يوم اخذتوها انها في وجهي فردوها ولم يغدر من المال شيئا. ولولا لطف الله بعباده بهذه وامثالها مما يسمونه (اسلوم) لكان جميع الحضر منحصرين في مدنهم ولا يسير للحواضر قوافل لان الحكام منشغلين عن تأمين الحضر بالنزاع فيما بينهم في ذلك الوقت وليس لهم سلطان واسع ينشر على الباديه (عبيد: ٣٢٢-٣).

ومن قصص العلقة قصة رواها منديل الفهيد لأحد البقوم مع سعيد ابن مقنزع العصيمي العتيبي (فهيد١٩٨٣: ١٨٠). وهناك قصة سجلتها من خلف العبيد من أهالي بقعا حدثت مع عيد أبا الروس من عنزة الذي كانت تربطه علاقة علقة مع رجل من أهل بقعا (وقيل من أهل المستجدة). وذات مرة عارض القحص –وهو عنزي من جماعة أبا الروس– عارض راعي بقعا في البر وأراد أن يأخذ منه عنزا ليذبحها لضيوف حلوا به. فحذره قائلا له أنا بوجه ابا الروس فما كان من القحص إلا أن لطمه فقال الملطوم ينخى أبا الروس:

القحص من سم الافاعي سقاني ... واسقان من مر الحريشا مقاصيد
ومّنت انا احسب الوجيه تحماني ... والا الرفاقه تدرى الانقاد ياعيد
ياعيد خبّرته بكم يوم جاني ... ياطخّةٍ طخّن على الوجه ياعيد
اقطع يدُه ياشوق صافى الثمانِ ... والا اذبحُه كان انت تدرى المناقيد

وبما أن القحص لطم ولم يقتل وبما أن الشاعر ابتدأ بقوله اقطع يده وجعل الذبح خيارا ثانيا فقد قام عيد ابا الروس بقطع يد القحص بالسيف.

وشبيه بذلك قصة مخلف ابن هديرس الذي كانت له علقة مع رجل من المواعز من حرب اسمه زيد يحميه من حرب. وأغاروا حرب واخذوا غنم ابن هديرس فتلكأ زيد في ردها فقال ابن هديرس يستحثه على الأداء ويذكره في البيت الأخير بقصة أبي الروس التي مر ذكرها وبقصة مماثلة حدثت لبدّاي ابن حمد من بني رشيد:

يازيد زل الحول وانا اترجّاك ... كبرت قراقير الغنم خاب راجيك
يازيد انا صلّيت دلوي بمدلاك ... ودلو اللزم ما يظهرنّه مداليك
تقصر عن الفنجال يازيد يمناك ... لى صار ما تدّى الحسب من بناخيك
يازيد من روس المواعز جذبناك ... نبي ليا جا طاري البدو نطريك
لو هو مع الاقصين ما كان لمناك ... مير البلا اخّاذه قصيرك بناخيك
ان كان ما دمّيت سيفك بيمناك ... من راس غضبانٍ فلا ادّيت عانيك
البيض تنصى غاديٍ وانت تنصاك ... السود عقّبْتَه لتالي ذراريك
عند الوجيه تعرّض النفس الادراك ... افطن لبدّايٍ وابا الروس يفتيك

والقبائل الضعيفة التي لا تستطيع مقاومة الغزاة وحماية أذوادها تحتمي بقبيلة أقوى منها وتدفع لها الخاوه مقابل هذه الحماية. تختلف الخاوه عن تعليق العاني في

أن **تعليق العاني** علاقة ندية ومؤقتة بين طرفين متساويين، أو على الأقل متقاربين في المكانة، والعلاقة بينهما علاقة تبادلية؛ فهذه القبيلة قد تطلب العاني من تلك القبيلة هذه السنة وقد تمنحه لها السنة القادمة. أما **الخاوه** فإنها علاقة تبعية ممتدة تحط من منزلة القبيلة وتهز مكانتها بين القبائل لأنها علاقة طرف ضعيف بطرف قوي. ولا يدفع **الخاوه** إلا القبائل الضعيفة، أو من يسمونهم **عَوَج دخان**. والذي تدفع له **الخاوه** عادة شيخ أو شخص قوي لديه من القوة ما يمكنه من الوفاء بهذا الالتزام. وعادة ما تفرض الخاوة فرضا على القبيلة الضعيفة التي تدفعها لاتقاء هجوم من تدفعها لهم. وحيث أن القبائل التي تدفع الخاوه قبائل ضعيفة عادة لا تمتلك الخيل والإبل فإنها غالبا ما تدفع خاوتها على هيئة رؤوس من الضأن أو أصواع من السمن. والقصة التالية سجلتها من دبيس ابن مهلهل العلوي من عبدة من شمر تبين لنا التعقيدات التي يمكن أن تحدث جراء التعدي على **الأخت**، أي القبيلة التي تدفع الخاوة:

صار ذبحه بين الحسين والغوانم صاروا جميع وصاروا الغْيثِه والعليّان جميع ضد بعض. ياخذون خاوات الاجناب، عَوَج دخان، ياخاهم سكران ابو جوختين ابن عتقا شيخ الحِتْمول من الحسين. وهم يغيرون هكالغزو من عوج دخان على الغيثة وياخذونهم الغيثه. واركبوا يالحسين ونوّخوا عليهم. وش تبون؟ قالوا: نبي هالجيش اللي انتم اخذتوا. قالوا: الجيش اغار علينا ولا حِنّاب معطينكم اياوه، هذا ماعر، كشّافة فخذ ولا حناب معطينكم اياوه. طرّدوا سكران ابو جوختين ابن عتقا شيخ الحتمول من الحسين، طرّدوه الغيثه واللي عندهم من العليان بشنق موقق من جاي. ركبوا منه ويمرّون صبيح ابن صِرّان من العليان يا مير حريمه يَبِقْلِن ويَقِرْطونه بالبقل أدَب لكم انتم يالغيثة انتم والعليان، ليه تعيّون بالجيش. وينوّخون على هكالتريباني، انتم يالحسين بْشَنَق جَرَار، خمس وعشرين ذلول. ضيّفهم دغيّم المناره من التريبان. قال: ياسكران الرجل اللي طابخٍ ابن عمه بالبقل ما ينام، يقولون الرجال شِبْرٍ من البيدا نِكاد للعدا. قال: والله ما انا ساريٍ بهالليل، باكر نبي نضرب مع الْمِسلْكه مع صيحان. ويَقِعْدون لهم بالمسلكه العليان والغيثه ويذبحونهم كل الخمس والعشرين. يوم انه طلع يقول يا مير هاكالواحد يغني قال:

وجـــدي على دلهـــان ياوجـــد مكســـور كســره حـدى الســاقين غـاد سـعـوف

قال فضل ابن قْبال: فال وقبلته عطون اياوه. قالوا: لك. وطخّه يا ذابحُه. ما ادري هو فالح والا ابوه فضل اللي ذبحه. وهم يذبحونهم. واركبوا يالمناره على جيشهم صلُّوه على اهلهم حول رْكان هاللي دون حايل وهم يرحلون الحسين، يجلون ورا الحسا. وياخذون قيمة خمسطعش سنه وهم جلاويه. ويوم المعركة بظفره هم غياب هكالوقت. دليله يقول التبيناني:

وين انت ياخـــــو نوف يوم الزحـــــام يوم الدخن غـــاد علينا تقل ســـيب

اخو نوف الدوح. بعدين يجون ويْعَدُون على العليان والغيثة ويذبحون رعيانهم على سَقْف متعاملين هم والعمود ومتراتعين العليان والعمود والغيثه، وراي البل هكالوقت مع ابن عمود. وين تمدّ البل؟ قالوا: تمد هنا. وهم يحبّرونَه. قال: فَرّق لنا شوفة الدغيرات، اعْزِل الدغيرات عن الخَرْصِه يابن عمود. ابن عمود خانهم. قال: باكر ما يجيكم الا دغيري –وهم منوخين بصبيحا شعيب يسمونه صبيحا دون سقف هالحين– باكر ما يجيكم الا دغيري. يوم مَدّوا رعيان الدغيرات قال ابن عمود: غديكم هالظما تريّحون سلْعْكُم وتستريحون، خلوا حلالكم بينكم وبين هالضلع. وهم ما يَخَبْرون غيره. اثر ذولا جايّين عادِين من ورا الحسا، مندّسينٍ عليه، على ابن

عمود. وفرّق شوفتهم هالتفريقه هذي وهم يذبحونهم قْضا. ويصير الذبَحا والله ان بعض الحكي لو هو صدق انك تكابرُه، أحدٍ يقول اثنين وثمانين بين القبلتين واحدٍ يقول اربعين. لكن الدليل الوكاد ان الاولين خمس وعشرين والظاهر انهم لادوهم خمس وعشرين. آه، تَلادَوا. يوم هذا وهم يجونك ويْحَضِر صحن ابن علي ويحضر هجهوج ابن رمال ويحضر كتاب ابن طواله ويحضر الرثيع ابن سعيّد ويحضر فلان وفلان من شيوخ الشمرين كله. وينوّخون لهم ما هم عند العربان. قالوا: نبي نْتشَطّر عن جاهل عن شي، بشنق دَيم، ضليعٍ هو هذا بشنق ابو نمر، بس مركوبه وهذا. ويتلادون: فلان لديّه فلان، فلان لديّه فلان، فلان لديّه فلان، تلادَوا الرجال بينهم. بِقي سكران ابو جوختين مخلّينُه الحسين يبون يذبحون به شيخ من شيوخ الدغيرات. هذولا خلّوا جابر خِبِل. قالوا: سكران ما له لِديّ. قالوا: كيف ما له لدي! سكران يلداوه جابر. ويغصبونهم ويلداوه جابر الخبل. دليله يقول الحسيني:

مـــا الديرع المقـــعي لِديٍّ لرمّـــان ياحـــــيف سكرانٍ لِديٍّ لجـــابر

الديرع ضليع هو هذا بشنق النازية هذي.

إضافة إلى كل الاحتياطات والتدابير السلمية التي ذكرناها مثل **المنع والعاني والعلقه والملحه والعمله** وما في حكمها، هناك عندهم أيضا ما يسمونه **العيافة والعرافة**. فلو أن فارسا من الفرسان أعتق شيخا من الشيوخ ظفر به في ساحة المعركة أو أن شاعرا امتدح أحد الشيوخ بقصيدة عصماء شهرت اسمه واسم قبيلته بين القبائل فإن الشيخ المعتق أو الممدوح يمنح لمن أعتقه أو مدحه **العيافة والعرافة** بمعنى أنه يطلب من قبيلته أن يعافوا إبل ذلك الشخص ولا يطمعوا فيها ولو فُرض أنهم نهبوها من ضمن منهوبات قبيلته وتعرفوا عليها أنها إبله ردوها إليه، مثلما حصل للشاعر فجحان الفراوي مع سلطان ابن سويط (عبيد: ٣١٨-٩؛ فهيد ١٩٩٢/أ: ١٣٤). وهم عموما يكرمون الشاعر ويتقون لسانه ولا يطمعون في حلاله رغبة في مديحه واتقاء لذمه. وهنالك أيضا ما يسمونه **الحسنى**، بمعنى أن يتبادلوا الجمائل فيما بينهم وعمل المعروف ويحسنوا إلى بعضهم البعض. فلو أن شخصا قتل شخصا آخر من قبيلة معادية فإن أهل المقتول ربما بادروا بالحسنى إلى القاتل والعفو عنه شريطة أن يتكفل بأن يرد إليهم ما تنهبه قبيلته منهم، مثلما حصل مع غريب ابن معيقل الشلاقي من الزميل من شمر حينما قتل ابن نصير من الكواكبه من الرولة في سالفة طويلة سجلتها من عدد من الرواة. وقد أفرد كل من أبي حسان (١٩٨٧: ٤٢٦-٣٠) وعارف العارف (٢٠٠٤: ١١٩-٢٢) فصلا كاملا لموضوع الحسنى وأوردا الكثير من الأمثلة والتفاصيل عنها بين بدو الأردن وفلسطين.

والمعاملة بالحسنى تعود إلى العصر الجاهلي، فقد ذكر صاحب **العقد الفريد** أن كنانة أسرت دريد بن الصمة في غارة لها على قومه بني جشم فأخفى دريد نسبه، وكان قد خلى سبيل حامي الظعينة ربيعة بن مكدِّم سيد وفارس كنانة، وتعرفت على دريد إحدى النساء فصاحت: هلكتم ماذا جر علينا قومنا؟ ثم ألقت عليه ثوبها وطلبت من قومها إطلاق سراحه، فأطلقوه بعد أن أرضوا آسره وكسوه وجهزوه، فلم يزل

كافّا عن حربهم حتى هلك عرفانا بجميلهم (عبدالرحمن ١٩٨٤: ٥٥). ومثل ذلك حدث حينما أطلق بسطام بن قيس بن مسعود أسيره أبا مليل التميمي من بني يربوع على ألا يبغيه أبو مليل غائلة ولا يدل له على عورة ولا يغير عليه ولا على قومه أبدا وعاهده على ذلك وأطلقه بسطام بعد أن جز ناصيته (بياتي ١٩٨٧/٢: ٣٥٩).

وعموما فإنه ليس من مصلحة الغزاة، من الناحية الاقتصادية وعلى المدى البعيد، أن يبيدوا رجال القبيلة الأخرى الذين يشكلون قوتها العاملة أو أن يقضوا على ثروتها الحيوانية بالكامل. فلا بد أن يتركوا لها من المال والرجال ما يكفي ليمكنها من النهوض من كبوتها واستعادة قوتها ومن تنمية ثروتها من جديد لتشكل بعد تنميتها مرة أخرى هدفا لغزوات لاحقة يكسب الغزاة من ورائها. فكل قبيلة في الواقع لا تعمل لنفسها فقط بل إنها بشكل غير مباشر تعمل أيضا، دون قصد منها ولا وعي، للقبائل الأخرى التي تغزوها لتنهب ما تنميه من حلال، مثلما أن القبائل الأخرى تعمل لها بنفس الطريقة.

الثلاث البيض

ومن التدابير السلمية بين القبائل ما يسمونه الثلاث البيض. ولا أعتقد أن الرقم ثلاثة هنا يشير تحديدا إلى عدد حسابي ولا إلى أشياء عينية بذاتها متفق عليها، وإنما هو مجرد رقم من تلك الأرقام المفضلة عند الثقافات الشفهية مثل الرقم سبعة أو الرقم أربعين، ولذلك تختلف التفسيرات بخصوص الثلاث البيض وعلى ما تشتمل. فمنهم من يرى أنها الجار والخوي والضيف: ترى الخوي والضيف والثالث الجار// مثل الصلاة الفرض وتزاد سنّا؛ ومنهم من يرى غير ذلك. فابن بليهد لا يذكر الخوي من ضمن الثلاث البيض وكذلك بدلا من الضيف يذكر البطن، والكلمتان على كل حال تكادان تكونان مترادفتين. ويتفق ابن عبيد (٢٧١) في تفسيره للثلاث البيض مع ابن بليهد الذي يفسرها على النحو التالي (بليهد ١٩٧٢/١: ١٢٥-٦):

> عند عرب نجد ثلاث يسمونها "الثلاث البيض". فإذا قلت ما الثلاث البيض؟ قالوا: الضيف السارح والطنب السابح والبطن، أما الضيف السارح فيعنون به أنه إذا أضاف رجل من مطير رجلا من عتيبة، ثم سرح من عنده واعترضه قوم من أقصى عتيبة منعه منهم صاحب الخباء الذي سرح الضيف منه، ويرد عليه جميع ما يؤخذ منه، وأما الطنب السابح فهو الجار، إذا كان رجل من مطير مثلا قد جاور رجلا من عتيبة، وجاء المطران وأغاروا عليهم، وأخذوا إبل العتبان، فإنه يجب على الجار أن يرد إبل من أجاره من قبيلته مطير وما أخذوا له، وأما البطن فإذا كان رجل من عتيبة قد مر على رجل من مطير فناوله فنجال قهوة أو كأس حليب وأخذت عتيبة إبل صاحب الخباء الذي شرب العتيبي فيه القهوة أو الحليب فإنه يجب على العتيبي أن يثور بما في بطنه ويؤدي الإبل إلى صاحبها، وله حق الثأر ما دام لم ينقض هذا الطعام أو القهوة بمثله، حتى أن بعضهم قد يصنع حيلة إذا جاءه أجنبي يظن أنه قد يحتاج إليه، وذلك أن يخلط بهار القهوة بنوع من اللبان الذي يظن أنه يبطئ فقد تمس الحاجة إلى ذلك الرجل بعد شهر.

قلنا في فصل سابق أن الكرم مؤسسة اجتماعية نظرا لما يحيط بالضيافة من طقوس وما يترتب عليها من التزامات متبادلة بين الطرفين تطرقنا لبعض منها أثناء حديثنا عن **الملحه**، وهي ما يسميها ابن بليهد **البطن**. **المالحه**، أي تناول الطعام، أو الشراب، مع شخص آخر شعيرة لها حرمتها عند أهل الصحراء لأن الإنسان هو الوحيد الذي يضيف الملح إلى طعامه، تمليح الطعام ذلك الرمز الذي يفصل الإنسان عن الحيوان ربما أكثر من الطبخ، الذي يرى الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس Claude Levi-Strauss أنه الرمز الفاصل بين الإنسان والحيوان كما يقول في كتابه *Le Cru et le Cuit*. ولربما يمكننا الربط بين مفهوم **المالحه** وبين أخوة الرضاعة التي لا توجد عند أي شعب آخر غير الشعب العربي ومن تأثروا بهم عن طريق اعتناق الدين الإسلامي. ونعني بأخوة الرضاعة أن الرضيع إذا أرضعته امرأة غير أمه التي ولدته تصبح أما له ويصبح أبناؤها وبناتها أخوة له.

المضيف يمنح ضيفه الحياة ليس فقط بسقيه وإطعامه وإنما بحمايته من السلب والقتل ما دام في ضيافته ولمدة ثلاثة أيام بعد مغادرته بيته، على أساس أن آخر وجبة تناولها الضيف عند مضيفه تبقى في بطنه تغذي جسمه وتمده بالحياة لمدة ثلاثة أيام. حق الضيف على المضيف لا يقتصر على الطعام والشراب فقط، وإنما الحماية. ومن العار أن يخون الرجل ضيفه أو يخذله ولا يقدم له الحماية اللازمة. وهذا التزام متبادل، إذ أن الضيف بدوره خلال إقامته ضيفا لا يحق له أن ينهب شيئا من إبل النجع، بل إنه لو حدث أنّ أحدا من عشيرة الضيف نهب إبل المضيف أو إبل أحد من جماعته أثناء إقامة الضيف معهم أو طالما أن طعامهم في بطنه فإنه ملزم برد المنهوبات، حتى لو كانت ضيافته مجرد فنجال من القهوة أو قدح من حليب النوق. إذا رأى ابن الصحراء غريبا قادما من بعيد ومتجها نحو البيوت جرى خلفه ليلح عليه بالنزول عنده وقبول ضيافته. رفض مثل هذه الدعوة أمر يدعو إلى الريبة والحذر. رفض الضيافة في الصحراء بدون سبب وجيه لا يعني إلا احتقار من يقدم الضيافة أو تبييت سوء النية وعدم الرغبة بالالتزام بما تفرضه شعيرة المالحة من الدخول في هدنة مؤقتة لا يجوز فيها القيام بأي عمل عدواني بين الأطراف المشاركة في هذه الشعيرة. ويورد روبرتصون سميث العديد من الشواهد التي جمعها من المصادر القديمة مثل كتاب الأغاني وتاريخ الطبري وكتب الجاحظ عن عادات الجيرة وعادات المالحة والضيافة عند عرب الجاهلية والشعوب السامية القديمة. من هذه الشواهد حادثة زوجة مسعود بن عمرو التي احتالت لإطعام عبيدالله بن زياد لإنقاذه من زوجها (Smith 1903: 48-49). ومن عادات المالحة أنه إذا قصد شخص شخصا آخر في أمر مهم فإنه يرفض أن يذوق "يمالح" ما يقدم له من طعام أو شراب حتى يلبى طلبه، أي أنك إن لم تجب طلبي فاعتبر نفسك عدوي. ويبدو أن هذه عادة سامية

قديمة حيث نقرأ في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين أنه لما شاخ النبي إبراهيم وكان لاجئا في بلاد الكنعانيين لم يشأ أن يزوج إبنه إسحاق من بنات الكنعانين وإنما أوصى رئيس خدمه أن يذهب إلى عشيرته في أرض حاران ليخطب لابنه زوجة من أبناء عشيرته. ولما وصل رئيس الخدم إلى حاران وحل ضيفا على لابان ابن ناحور الذي هو ابن عم ابراهيم ليخطب ابنته لإسحاق قام لابان "ثم وضع الطعام بين يديه ليأكل، لكنه قال: لن آكل حتى أخبركم بما يجب أن أقوله" (**التفسير التطبيقي للكتاب المقدس** ٢٠٠٢: ٦٤).

ولا تقتصر المالحة على تناول الطعام بل تشمل أيا من مراسيم الضيافة والإكرام، بما في ذلك تبادل التحية والسلام. يقول منديل الفهيد:

> إذا قرب الوافد من الديار وسلّم ورد عليه السلام أحد ممن في البيوت، حتى ولو كان طفلا أو امرأة، وسواء عرفه أو لم يعرفه، أصبح بذلك آمنا حتى لو كان مطلوبا من أهل البيت أنفسهم بثأر. وكذلك من شرب حليبا من رعية الإبل يصبح آمنا ولو كان عليه دم حتى يتناول الوجبة التالية. وقد حدثت حروب وثارات بين بني سعد وبين بني الحارث قُتل فيها العديد من الأنفس منهم ابن مقبول عقيد بني الحارث. وقد قال بهذه المناسبة بنو سعد قصيدة استفزازية منها
>
> ياراس ابن مقبول قبلك راس ما راسك اطيب من بني سعد
>
> فاغتاظ بنو الحارث وأقسم مستور بن مقبول أن يثأر لأبيه ويقتل عقيد بني سعد المدعو ابن محفوظ. وصدف في أحد الأيام أن ابن محفوظ كان عابر سبيل ورمى به الفأل إلى بيت غريمه مستور وهو لا يعلم بذلك. فلما قرب من مناخ الضيافة قال: ياراعي البيت جاءك ضيف جوّدُه (أي أعطه الأمان). فأعطاه الأمان وذبح له وتعارفا. وفي الصباح مشى مستور مع ضيفه ابن محفوظ متحزما ببندقيته، وكان ابن محفوظ يظن أن مستورا سيغدر به إذا بعدوا في البر. فلما انتهت حدود بني الحارث وبدأت حدود بني سعد قال مستور: هذه بلادك اذهب سالما فهذا ما تقضي به عادات العرب واعلم أنني وراءك مستقبلا ولن أترك ثأر أبي (فهيد ١٩٨٥: ٤٢).

ويورد ابن بليهد الحادثة التالية عن الضيف السارح:

> عند أعراب نجد العاني له شأن إما أن يقتل المعتدي أو يقطع خشمه. ومن أمثلة ذلك ما حدثني به خاتم بن مسعد أمير الدلابحه الساكنين في بلد القرين وهو ضيف عندي في بلد الشعراء فبحثنا في العواني وما يتعلق بها عند أعراب نجد، فقال: أحدثك عن أمرٍ واحد شهدته. جاءنا تاجر من أهل الشعراء، ونحن على ماء من مياه النير وهو يبيع من تجارته على الأعراب. فرحل منا ذات يوم ومعه رجل من العضيان يمنعه من جميع عتيبة. فلما سافرا مسافة ثلاث ساعات جاءهم قوم من جماعتنا فأخذوهما وأخذوا جميع ما معهما. فرجعا إلينا فقال الحضري صاحب التجارة المأخوذة لوالدي حمدان بن مسعد: أنا في وجهك، أخذوني جماعتك الدلابحة. فقال له والدي: الذي أخرجك من بلادك واحد من عتيبة وهو الذي يمنعك منهم. فقال إن مسألتي من الثلاث البيض وهو الضيف السارح. فركب والدي على راحلته وركبت معه وأنا غلام وركب الحضري التاجر وخويه العتيبي على راحلة أخرى. فلما سرنا قليلا التفت الحضري إلى والدي وقال: ياحمدان جيت بعد مسيري منكم رجلا من الغبيات وحلب لي ناقة فهل لنا وجه نأتيه نثوره؟ فقال والدي: نمرّه ونأخذه معنا ونضعه لنا ثوير. فجئناه فأخذناه معنا. فلما طلعنا على منزل القوم الذين

أخذوا التاجر وعرفنا أخبيتهم عرّجنا عند غيرهم وأنخنا ركابنا عندهم وكلهم قبايلنا الدلابحه وبتنا تلك الليلة ضيوفا لهم. فلما كان من الغد بعثنا للذين أخذوا التاجر فجاء خمسة من الأبطال يرأسهم رجل منهم. فلما شرعوا في حديثهم قال الحضري جئتكم بثلاثة (مشاعيب) حمدان بن مسعد، أنا ضيف سارح من عنده وأخبرتكم بذلك قبل أن تأخذوني، وهذا رجل من العضيان اخرجني من بلادي لحمايتي منكم وغيركم من عتيبة، وهذا رجل من الغبيات حلب لي ناقته قبل أن تأتوني بقليل. فكثر الخصام بينهم. ثم قالوا لصاحب المال: اختر رجلا واحدا من الثلاثة، واعف الاثنين وهذا هو السلم القائم بين قبائلنا. فقال لهم قد اخترت حمدان بن مسعد. وكان حمدان محترزما بخنجر في بطنه فعزموا على رد ما أخذوه. فقال والدي للتاجر تفقد بضاعتك وما جاؤوك به منها. فلما انتهوا من جمعه قال والدي للتاجر: هل بقي لك شيء؟ فقال نعم بقي لي كيلة دقيق في خرقة بيضاء وشيلة امرأة سوداء. فتلفت والدي إلى رئيس القوم فقال له: قم فأتينا بها. فقام سريعا وأتى بها وسلمها لوالدي فقال: هل بيّضت وجهك ياحمدان؟ فقام والدي وقال: بل سودت وجهي لأخذك ضيفا سارحا من بيتي. وجذب الخنجر من حزامه وضرب بها أنفه فقطعه وقال: هذا الذي يبيض وجهي (١٩٧٢/٥ : ١٩٢-٣).

أما **الطنيب**، ويسمى أيضا **الجار** أو **القصير** فهو الجار الذي تتماس أطناب بيته مع أطناب جاره، والمقصود به شخص من خارج العشيرة جاء لأي سبب من الأسباب ليبني خباءه بينهم بعدما اتفق مع أحدهم أن يكون طنيبا له. والجيرة، مثل الضيافة، يترتب عليها التزامات متبادلة بين الطرفين بحماية أحدهما الآخر ورد منهوباته. ومن الأمثلة على ذلك هذه الحادثة التي يرويها ابن بليهد وترينا أن الطنيب الأجنبي عليه نفس الالتزامات التي للطنيب المحلي فيما يخص الدفاع عن طنيبه ورعاية مصالحه:

كان فارس الدويخ من الروسان من قبائل عتيبة قد جلا عن وطنه من دم وغرم كانا عليه، فنزل جارا . . . لمحمد بن حشيفان، وكان فارسا زريّ الهيئة قبيح المنظر، وبعد نزوله عليهم بخمسة أيام أصبحوا فإذا الطرقاء (جواد محمد بن حشيفان) ليست في مربطها. ثم وجدوا أثر رجل علموا أنه قد أخذها بليل واتجه بها إلى بلاد عتيبة. وكان من عادتهم أن هذا العتيبي يمنع عنهم في سلمهم. فالتفت ابن حشيفان إلى ابنه فقال: ما ظنك بهذا الجار؟ يعيد إلينا الطرقاء أم لا؟ قال: لا أعلم، وإن جارك لا يعجبني. والكلام كله في أذن جارهم فارس الدويخ. ولما أتاهم في مجلسهم قالوا: ما رأيك في الفرس؟ قال: سنتبعها، ونسير على قواعدنا. فركب الولد والجار على رواحلهما، وأخذوا يتبعون أثرها حتى أدركوها عند الشعراء، عند رجل من الدعاجين من جماعة ابن عقيل يقال له ابن عرويل. فلما كانوا في وسط منازلهم رأى فارس الدويخ ابن عرويل يقود الطرقاء قاصدا حوض ماء يريد أن يسقيها منه. فلما رآها قال لصاحبه صاحب الفرس: أنا رأيت الفرس ولا أحتمل أن أتركها، ولكن اندفع أنت إلى تلك الأخبية فإنها أخبية قومي الروسان وانتظرني عندهم حتى آتيك بفرسك أو تأتوني ميتا فتنزلوني قبري. وهو محترزم بخنجر، وهي من سلاح الأعراب كالسكاكين. فاعترض سائق الطرقاء قبل أن يصل الحوض، فأمسك بزمامها، فقال له ابن عرويل: ما شأنك؟ قال: شأني أن أفتكها بيدي أو تقتلني أو أقتلك، وقانون قبائلنا بيني وبينك. فلما رأى ابن عرويل الجد، وخصمه شاهر خنجره بيده فك حبلها بيده، وقال: بيني وبينك سلم القبيلة. فركبها واندفع إلى قبيلته فقال عند ذلك أبياتا نبطية منها:

ما اروح والطرقا تبوج الدواوير والله ما اجنّب عن قصيرة عيالي

والله ما اجنّب عن رسنها ولا اسير إلا حدينا للمقابر يشال

فصح عندهم أن الفرس جارة له فلم يداعوه، فثبت أنه جار لأصحاب الفرس وتركوا مطالبته. ورجع الولد القحطاني إلى أبيه ومدح الجار عند والده وذكر ما رأى منه من الجد. وبقيت كلمة الولد التي يقولها لأبيه حين سأله عن الفرس في نفس الرجل. فلما رجعوا ووصلوا منزلهم استأذن ابن حشيفان الدويخ أن يرحل إلى جهة أخرى ولم يخبره السبب. فأعطاه ناقتين إكراما له ورحل عنهم (١٩٧٢/٢: ١١٣-٤).

ومن القصص المشهورة التي يتناقلها الرواة عن وفاء الجار لجاره ما حدث لعقوب ابن عفنان ابن سويط حينما عجز عن حماية جيرانه من الكلخه من بني علي من حرب حينما قام سعود ابن رشيد ومعه ابن سعدون شيخ المنتفق بمهاجمة الظفير وأخذوا أذوادهم، بما في ذلك أذواد جيرانهم من حرب. ولما سمع عقوب ابن عفنان بما حدث لجيرانهم وعدم قدرتهم على منعهم وحمايتهم صاح معتزيا "أنا سويطي" ومات لتوه كمدا وقهرا (فهيد ١٩٩٢/أ: ١٤٣؛ ١٩٨٣:١٧٤). وقبل ذلك كان صنيتان ابن سويط قتل ابنه الذي خفر الجوار وقتل جارهم ابن منديل، وهذه هي القصة كما أوردتها عدد من المصادر (عبيد: ١١٨؛ بليهد ١٩٧٢/٥: ١٩٣؛ إنغام ١٩٩٥: ١٥٨-٩):

بعدما زال حكم بني خالد في الأحساء وتفرّقوا لجأ أحدهم وهو عبدالله الفارس بن هتيمي المنديل الخالدي شيخ العمور عند قبيلة الظفير وصار جارا للشيخ صنيتان ابن سويط وإخوانه حمود وجعيلان على حشيمة وتقدير، كالمعتاد بين القبائل. وكان برغش ولد عبدالله بن منديل عقيدا مظفرا يجر الجيوش ويغزو بها ويعود ظافرا غانما محملا بالكسب والغنائم الكثيرة من إبل الأعداء فأحبته الظفير وتبعوه بعدما رأوا أفعاله. وفي أحد غزواته رغب ضاري ولد الشيخ صنيتان ابن سويط أن يصحبه طمعا في الكسب. وكانت العادة أنه إذا مد الغزو وكانوا أخلاطا من الناس وساروا لمدة ساعة أو ساعتين ينيخ عقيد العموم الذي يسمونه "المنوّخ المثوّر" ومن يريد أن يتبعه ينيخ معه علامة على الرضا بنفوذه والانصياع لأوامره والقبول به قائدا مطلقا له الحق في إعطاء الأوامر لمن يشاء وتقسيم الغنائم كما يشاء. وبعد أن ساروا برهة من الزمن قال برغش لضاري: أنا جار عندكم وهؤلاء جماعتك لا يجوز لي أن أترأسهم وأنت معهم فإما أن تنيخ للقوم ومن يرضاك تبعك وأناخ معك وأنا وربعي نفوت أو أنا أنيخ لربعي وأنت وربعك تفوتون ويذهب كل منا وشأنه. ولما أناخ ضاري تركه جماعته لوحده وتبعوا برغش. فلحق به ضاري وقال لا بأس كلنا تبع لك وجميعنا نبحث عن الكسب. ولما أغاروا على الأعداء كسبوا منهم إبلا كثيرة. فأراد ضاري أن يكون عَزْلُه، أي نصيبه من الكسب، مثل نصيب العقيد، على أساس أنه ابن الشيخ فرفض برغش وقال أنت شيخ وأنا شيخ مثلك وأنا أعزل على جماعتي وأنت تعزل على جماعتك. وهكذا تفاقمت المشكلة واحتد النزاع بين الأثنين وأضمر ضاري الشر والحسد لهذا الجار المحظوظ الذي صار نجمه يعلو واستأثر بالإسم والشهرة والغنيمة. فلما وصلوا منازل أهلهم سيّر برغش على مجلس الشيخ صنيتان بن سويط وابتدأ يقص على الحضور أخبار غزوتهم. وكان بيت ضاري مقابلا لبيت أبيه يرى ويسمع ما يجري في المجلس. حينها أكلت الغيرة صدره وقرب الشيطان منه وزين له قتل برغش ووسوس له قائلا: كيف ترضى لهذا الأجنبي أن يترأس على قبائلكم فلو قتلته لصفا لك الجو. فقام إلى بندقيته وصوبها نحو جارهم وأطلق رصاصة اخترقت صدره ومات في الحال ولم يدرك إلا أن يقول "جاركم على ناركم". وفي الحال قامت نساء بني خالد بهدم بيوتهن وأخذن بالنواح والعويل والدعاء بالويل والثبور. وهَمّ بنو خالد بالرحيل

يريدون النزوح إلى قبيلة مطير. ولما اكتظّ مجلس ابن سويط بالرجال كعادته قامت أم الولد القاتل وخاطبت زوجها صنيتان بين الرجال بصوت مرتفع تحرّضه تقول: ياصنيتان والله لإن لم تقتل ولدك وتبيض وجهك عند العرب والله لن يتجوز الرجال من نسائك بعد اليوم ولا يأتيك المظيوم لاجئا لبيتك وإذا ما صاحن السويطيات على ولدهن مثل ما يصيحن الخالديات على ولدهن فإنك لن تفرح بالعز بعد اليوم. وكان صنيتان بن سويط شيخ كبير، فلما سمع كلام زوجته وكان من قبل ذلك متأثرا في نفسه بما حدث قام وندب أخيه حمود قائلا: اقتل إبني وإلا قتلت نفسي، والله ما ينحن جاراتي على قتيل كريم إلا وينحن نساؤنا مثلهن. وألح أبو الولد على أخيه أن يسرع في قتل إبنه قائلا له: لا أحب أن تبقى في تاريخنا شامة سوداء ولن يغسل هذا العار إلا قتل القاتل. فنفذ حمود رغبة أخيه الشيخ وقتل القاتل وضحى به دون وجههم. وصار لهذه القصة صدى كبير وأصبحت مضرب المثل في الوفاء. يقول الشاعر ابراهيم بن جعيثن:

الطايله خذها الصويطي صنيتان ... من دون جاره صار للشبل ماحي
يوم انتهض فرخٍ من الوكر سكران ... صاده حمود وبرقعه واستراح

وفعلة صنيتان ابن سويط حدث ما يشابهها في الجاهلية إذ ينقل يوسف خليف (١٩٦٦: ٩٦) نقلا عن المحبر لابن حبيب قوله "وفي أخبار أوفى بن مطر المازني أن رجلا جاوره ومعه امرأة له، فأعجبت قيسا أخاه، فجعل لا يصل إليها مع زوجها، فقتل زوجها غيلة، فبلغ ذلك أوفى، فقتل قيسا أخاه بجاره". ومعلوم أن حماية الجار عادة قديمة عند العرب تعود إلى أيام الجاهلية. يقول يوسف خليف عن الجوار "وقد قدّس المجتمع الجاهلي هذا القانون تقديسا كبيرا، وكان مما يفخر به العربي أن يكون ملاذا لكل خائف، وملجأ لكل طريد، لأن في ذلك اعترافا بقوته ومروءته وكرمه" (١٩٦٦: ٩٥-٦). وربما نشبت بينهم الحروب بسبب التعدي على الجيران وامتهانهم. فقد نشبت حرب سُمير بعدما قتل سُمير من بني عمرو بن عوف الأوسي حليف لكعب بن العجلان الخزرجي، ونشبت حرب فارع بعدما قتل رجل من بني النجار غلاما قضاعيا كان عمه مجاورا لمعاذ بن النعمان الأوسي، ونشبت حرب حاطب بسبب كسع يهودي لرجل من بني ثعلبة كان نازلا عند حاطب الأوسي بإيعاز من الحارث بن فُسحم الخزرجي (عبدالرحمن ١٩٨٤: ٨٨-٩). وقد صورت الأشعار الجاهلية ما يحظى به الجار من حماية كما في قول قيس بن زهير الذي استجار بقبيلة النمر بن قاسط وقال يمدحهم:

إن للنمر في إجارتها الجا ... ر وأمن الطريد حظا عظيما
يأمن الجار فيهم وترى وسـ ... ـطهم ذا خؤولة معموما
يملأ الدلو قبل دلو أخي النمـ ... ـر وما حوض جارهم مهدوما

ويقول الحطيئة يمدح بغيض بن عامر بن شماس التميمي من أنف الناقة:

قومٌ إذا عقدوا عقدا لجارِهِمُ ... شدّوا العناج وشدّوا فوقه الكربا
قومٌ يبيت قرير العين جارهم ... إذا لوى بقوى أطنابهم طنبا

ويقول شاعر آخر:

ومن تكرّمهم في المحل أنهمُ ... لا يعلم الجار فيهم أنه الجار

كـــأنه صـــدعٌ في رأس شـــاهقـــةٍ من دونه لعـــتـــاق الطيـــر أوكـــار

ويبين رميح الخمشي في البيتين التاليين حقوق القصير، أي الجار، مؤكدا في صدر البيت الثاني أنه معفى من كامل الالتزامات والمسؤوليات القضائية، فهو عفو الظهر، منفوه ويقوم مقامه في ذلك بدلا عنه مجيره الذي هو في حماه وكنفه، ما عدا حالات الاعتداء من القوم المغيرين الذين يصبون غارتهم على الاثنين؛ القصير وقصيره، وهذا ما يشير إليه عجز البيت الثاني:

قِصيرنا ما حشمته عندنا يوم يزيد مع زايد سنينه وقـــــاره
عِفْو الظهر منفوهٍ الا عن القوم قومٍ تَخَلْط جمارنا مع جْماره

ويشرح خضير الربوض معنى البيت بقوله:

> الضيف ما تمشي به حق. لو انا اطلب ضيفك هذا ما اخلّيك تاخذ حقك منه، يا منه جا هله اتبعه وخذ حقك منه، هذا ضيف لي والا خوي لي والا جار لي، ما تجيه، منفوه الذمه مثل ما قال رميح الخمشي، إلا القوم اللي قوم لي انا واياوه، والا من ربعنا منفوه.

فالجار أو الطنيب أو الضيف لا يؤاخذ على أي خطأ يرتكبه أو أي جرم يقترفه في أثناء نزوله طنيبا ولا ينادى للمحاكمة بل يقوم مقامه جاره أو شيخ العشيرة التي يكون طنيبا لها ويدافع عن حقه ويدفع ما يلحقه من تضمينات (قسوس ١٩٧٢: ٦٦؛ Musil 1928a: 267-9). ويقولون عن القصير إنه "قاصر ما يمد يده" أي لا يتقاضى من غريمه وإنما يتقاضى له قصيره (حسنين ١٩٦٧: ٣٠١-٢).

وحماية الضيف والجار من العادات السامية الموغلة في القدم حيث نقرأ في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين أنه حينما احتشد أهالي سدوم في المساء أمام بيت النبي لوط وطلبوا منه أن يخرج لهم ضيفيه الملكين ليفعلوا بهم الفاحشة خرج إليهم بعد أن أغلق الباب خلفه وقال "لا ترتكبوا شرا ياإخوتي، هُوَذا لي بنتان عذراوان أخرجهما إليكما فافعلوا بهما ما يحلو لكم، أما هذان الرجلان فلا تسيئوا إليهما لأنهما لجآ إلى حمى منزلي" (التفسير التطبيقي للكتاب المقدس ٢٠٠٢: ٥٠).

الخوي

الخوي، ويسمّى المسيِّر عند بعض القبائل، أو الخوة شكل من أشكال الأخوة التعاقدية تقوم مقام أخوة الدم وهي، مثلها مثل الجار والعاني والعلقة، مصطلح فضفاض يغطي أنواعا متعددة ومتنوعة من العلاقات والتعاملات شبه التعاقدية بين طرفين كأفراد أو جماعات. فهناك الخوة التي تدفعها بعض القرى والقبائل الضعيفة مقابل دفع غائلة القبائل القوية واتقاء هجماتها أو مقابل ما تحصل عليه منها ومن زعمائها من الحماية، والتي سبق لنا الحديث عنها. وهناك الخوة التي تدفعها القوافل التجارية لشيوخ القبائل التي تمر عبر ديارها وتشرب من آبارها لألا تتعرض للنهب والسلب. وهناك الخوّة التي يدفعها المسافر للخوي والرفق من أبناء القبيلة

الذين يتعهدون بحماية روحه وممتلكاته من أبناء قبيلتهم والتكفل برد ما ينهبونه من ماله. فلا يمكن للمسافر أن يعبر ديار قبيلة من القبائل إلا إذا اصطحب معه رفيقا من القبيلة يخفره ويحميه مقابل جعل معلوم يتفقان عليه. يقول جون فيلبي:

> نحن الآن على مشارف ديرة عتيبة. من الشاطئ الغربي وحتى هنا لم يكن من الضروري اتخاذ أي احتياطات لإخفاء وجودنا أو لحراسة مخيّمنا، أما الآن فالوضع مختلف. فقد انحرفنا عن الطريق الرئيسي لنتحاشى لقاء عابري السبيل. وخيمنا في منخفض من الأرض لنخفي نارنا، وكان هناك بيننا أربعة رجال من قبيلة عتيبة الذين أخذوا على عاتقهم من الآن مسؤولية حمايتنا. وبين كل فينة وأخرى يتقدمون باتجاه الكثبان المحيطة بنا ويعتلونها ويرفعون عقائرهم ينادون "اسمعوا ياعتيبة أنا جرمان من برقا، فلتعلموا أننا رجاجيل ابن سعود ذاهبون إلى الشريف وليحذر أي منكم أن يتعرضنا بأذى ومن يسمع صوتي فليأتي إلينا على الرحب والسعة ليشاركنا عشاءنا ويتناول معنا القهوة لكن لا يمسسنا أحد منكم بسوء وحذاري أن تقولوا أنكم لم تعلموا من نحن ومن نكون". لكن الدعوة لم يسمعها أحد في ظلام الليل ولم نتعرض لأي أذى (Philby 1922/I: 131).

ويقول ابن بليهد (١٩٧٢/٢: ١٥٣–٥):

> ومن اللصوص المعروفين شنبر بن كاحل، من الشيابين أيضا، من قبيلة ذوي خليفة، وهو لص محنك. قال لي بعض أصحابه من الحاضرة ممن يستعمل طريق مكة للاتجار ويأخذ شنبرا رَفَقا عن قبيلة عتيبة، إذا ورد الحضري صاحب شنبر ماء سجا وجد شنبرا في انتظاره، قال لي: فإذا دخلت مكة غاب فلم أره فإذا قرب رحيلي أتاني وواعدني منهل البرود الواقع في وادي المغمس النافذ على طريق جدعان، فإذا أتاني كان معه أربعة جمال أو خمسة أو ثلاثة موقرة من الأرز وغيره من المواد الغذائية. قال كاتب هذه السطور حججت سنة ١٣٣٢ وحينما دخلنا أول ركبة ونحن نحرس، ولا يمضي علينا ليلة إلا وقد طردنا فيها اللصوص نحن ثلاث مرات أو أربع، إلى أن دخلنا الربع ووصلنا الأرضين المحفوظة بضمانة أهلها، ويقال لها المدارك: مدرك بني فلان، ومدرك بني فلان. فلما انقضى الحج تأخر حاج مدينة شقرا، وعزمنا نحن على الخروج من مكة، فتواعدنا منهل البرود. فلما اجتمعنا عليه جميع أهل قرى الوشم وأهل الشعراء والدوادمي مشى بعضنا إلى بعض، وبحثنا في مسألة الخوي الذي من عتيبة نربط به العاني حتى نصل بلادنا. فقال بعضنا لبعض: كل خبرة معها عتيبي وتربط عانيها به، فلا تعلم الأعراب أن ليس معكم أحد. فنفّذنا هذه الرغبة. وكان الذي معي من عتيبة هزاع أبو تنية من قبيلة الروسان، وليس له قبيلة حجازية وعندي شك في أنه يستطيع أن يمنعنا فصرحت له، فقال: لا تخف، سلم قبيلتي سأمشي عليه ولو أني رجل واحد. وكان شنبر اللص الذي مر ذكره مع صاحبه عبدالكريم الخراشي من أهل أشيقر، وأنا أرغب في أن أعلق عانينا عليه، وهو مع رفقائه أهل بلد أشيقر يبلغ عددهم ثمانين رجلا وإبلهم يبلغ عددها مائتين تقريبا، وكان روساؤهم يركبون الركاب نحو عشر من الهجن، وشنبر ورفقاؤه مع الحملة . . . فمررت بهم وهم في وادي أم الخروع بين الربع وماءة عشيرة، فما شعرت إلا وهو يدعوني، فأتيته، فوجدت رجلا طويل القامة قد وخطه الشيب عاريا من اللحم، كأنه سبع، فقال: إني قصدت لي قصيدة وأحببت أن أسمعكها. قال ذلك وهو راكب على جمل بين كيسين من القهوة. فقلت أسمعني إياها. فنهض واعتدل ثم رفع صوته بها حتى أتى على آخرها. فسمعت قصيدة لم تكن لتصدر إلا من شاعر بليغ. فقال بعد انتهاء القصيدة: تراني داخلٍ على الله ثم عليك، اتركني أنا وأهل أشيقر. قلت: على شرط أن نكون في وجهك أنا ورفقائي حتى نصل الشعراء. قال: لا، بل حتى تصلوا بلدكم ذات غسل. وكان

معنا خبرة حاج من أهل حوطة بني تميم ليس معهم رفيق، وعند شنبر خبر بذلك. فقال لهم: علّقوا عليّ أنا أمنعكم من اللصوص. فأبوا. فلما وردنا ماء عشيرة، وكانت عادة منزلة الحاج كالحلقة للتحفظ، وكان منزل أهل الحوطة في جهة المنزل الشرقية، وكان وراءهم ثنية تطلع على الحرة على طريق نجد يقال لتلك الثنية "سنيد" ومنزل أهل الحوطة بين منزل شنبر وبين ريع سنيد- فلما صلينا المغرب ارتفع شنبر ونحن على ماء عشيرة على أكمة صغيرة ورفع صوته قائلا: يامن حولنا بالشعيب، إن كنتم تبغون العشاء تراه بيننا وبين سنيد، إشارة إلى الخبرة التي بيننا وبين سنيد أنهم ليس معهم رفيق. فلم يكمل صوته إلا ولأهل الحوطة صياح من كثرة اللصوص. ثم نادوا شنبر فقالوا له: نحن في وجهك. فنادى نداء ثانيا فقال: ليس بيننا وبين سنيد لكم عشاء، بل العشاء عندنا. فأتى اللصوص من كل ناحية نحوا من عشرين نفرا، وأكلوا معنا، وباتوا عندنا.

وتشكل الخاوة مصدر دخل لا بأس به ولذلك كثيرا ما ثارت النزاعات حولها واحتد التنافس بين أبناء القبيلة بخصوص من هو المخول منهم لتقديم هذه الخدمة للغرباء وتقاضي ما يترتب عليها من أتعاب. وهذا لا يختلف عن الصراعات التي كانت تقوم بين أبناء القبيلة الواحدة حول الصرة التي كانت تدفعها الدولة العثمانية في العصور الماضية لشيوخ القبائل التي تقع ديارها على طريق الحج. ولا يستطيع الوفاء بالتزامات الخوة وما يترتب عليها من مخاطر إلا رجل شجاع له عصبة قوية تحميه وتدافع عن مصالحه التي هي بالتالي مصالحها. تبذل عشيرة الرجل الأقربين أقصى جهدها لمساعدته في الوفاء بالتزاماته تجاه الخوي حتى تكسب ثقة الآخرين ولكي تؤكد أهليتها للاضطلاع بهذه المهمة المربحة. لذلك لا يستغرب أن تتخذ القبيلة أقسى العقوبات الممكنة ضد من يتجرأ من أبنائها ويقدم على مخالفة القواعد المرعية في هذا الخصوص كما تؤكده هذه الحادثة التي يرويها العبيد (٣٢٣-٥):

واذكر للقراء قصة شاهدتها بعيني وذلك ان رجلا من جماعتنا اهل عنيزه اسمه سليمان القبلان وهو متوفي رحمه الله. فمن ذلك انه سافر معه دراهم ليشتري بها ابلا من عتيبه وذلك في سنة ١٣١٦هـ. وكان قد سار بخفارة اعتيبي من عرب بن ربيعان ومعه رجل مطيري اسمه مغلث بن عنيزان. فاشترى ابلا كثيره تساوي خمسين جملا وبقي معه ٦٠٠ ريال. فكان يتجول بين البوادي ليكمل مشتراه. فبات ذات ليله في البريه وليس عند باديه. فهم المطيري بقتلهم وهم سليمان بن قبلان ورفيق لهم آخر اسمه عبدالله بن طاسان والعتيبي الذي معهم رفيق من عتيبه من جماعه بن ربيعان وهو روقي. فقام من ليله المطيري وقتل الاثنين الروقي وابن طاسان وانتبه سليمان القبلان مذعورا وأراد الهرب فلحقه وطعنه بسكين كانت معه وتركه وهو يظن انه مات مثل رفقائه. فانقلب ووضع الرحل فوق مطية سليمان لانه يعلم انها نجيبه وهي خير ما معهم من الابل وحمل عليها النقود وانهزم في ليله وترك ما وراءه الابل بعقلها ورحلهم ملقى على الارض. اما سليمان المذكور فهو بعدما غشاه الدم الذي خرج منه من طعنات السكين فزحف الى غار قريب منه فدخل فيه ذاهلا نفسه واقام في الغار يومين وليلتين. فاتاح الله بعرب من الروقه ضاعنين يتقفرون لابلهم مواضع العشب. فبعد يومين عثروا على الابل في عقلها وبعض منها متفلت. فجمعوها وجمعوا شتات رحلهم اللذي في الارض ووجدوا الرجال الاثنين ميتين. ونظروا الى الغار واذا فيه رجل حي فعمدوا اليه وحملوه معهم وانقذوه بان اسقوه واعطوه طعاما. وكان مما قص من قصته وهو في الغار فيقول عناية الله حمتني من

الذئاب التي تدور علي في الليل كله بسبب ملح البارود الذي معي[١]. اما ما كان من الرجل الخائن المطيري الذي قتل الرجال واخذ المال والراحله فانه نزع ولم يأت قبيلته حتى نزل مع حرب القاطنين باعلى المدينه المنوره. فبلغ الخبر اخوه وابناء عمه وانه هذه قصته مع زملائه فركبوا على ستة ركائب والفو عليه وكان كبيرهم ابن عم له يدعى غازي بن ضبعان فبلّغوه عنهم بخلاف ما فعل بهم بان قالوا له ان الرجلين الذي قتلتهم فانهم احياء ولم يموتوا الى الآن وان الرجل الثالث فهو حي وقد وصل عند اهله بعنيزه ولا حاجه من جلاك مع الاجناب عنا يا ابناء عمك وعشيرتك فسر معنا فنناضل دونك ونصلح كل ما احدثت حتى تأمن ونأمن معك. فما زالوا به كذلك حتى اذعن للسفر معهم. فأتوا جميعا الى اهلهم واتوا على ماء يسمى ترب كان اهلهم نازلين به. فلما تمكن اخوه منه اتى بحمار اسود بعدما اوثق يديه على ظهره واركبه على الحمار وربط رجليه على بطن الحمار كل رجل بأختها وسوّد وجهه من موقد النار واخذ يطوف به بين البيوت وينادي هذا جزاء الخائن. فلما طال التطواف به رماه ببندقية كانت معه فقتله وسلخ جلدة وجهه بعيونه وبأنفه وبفمه ثم علقها في رقبة الذلول. فما شعرنا الا وهو ينيخها عند قبلان ابو سليمان القبلان والدراهم معه ٦٠٠ ريال لانه لم يذهب بالدراهم معه بل اودعها عند عجوز من قرائبه فوجدوها كامله غير منقوصه. فأخذ سليمان الذلول والدراهم. فقال هذا جزاء الخائن وهذا نقائي منكم ياهل عنيزه. فشكر منه سليمان القبلان وشكره واعطاه جائزه.

سبق لنا القول في فصل متقدم أن الكرم سلوك تبادلي فالإنسان يتوقع من الجميع أن يبادلوه كرما بكرم. لكن الشعر رفع الكرم من مجرد ضرورة عملية تمليها طبيعة الحياة البدوية إلى قيمة إنسانية مما ساعد على تترسيخها حتى تحولت إلى سجية وطبع، إلى سمة ثقافية متأصلة وقيمة اجتماعية تلازم حياة البدوي. بمعنى أن البدوي لا يحسب بشكل واعي للربح والخسارة حينما يمارس شعيرة الكرم. ويمكن تعميم هذه المقولة على الخوة أيضا. **الرفيق قبل الطريق** من الأقوال المأثورة عندهم. السفر في الصحراء محفوف بكل أنواع االمتاعب والمخاطر ورفيقك إما أن يكون عونا لك في مواجهة هذه المتاعب والمخاطر أو عبئا عليك. ولذلك فهم يرون أن الطريق هو الذي يكشف لك معادن الرجال. يقول برترام توماس (Thomas 1932: 259-60) :

توقفنا وسط تلك التلال الحمراء المتموجة عند مورد بنيان. قافلتنا تجر خطاها، مثلها مثل كل القوافل المتعبة، والمنهكون منا تخلفوا في المؤخرة. كان شهر رمضان شديد الوطأة على الرجال مثلما كان العشب مالح الطعم شديد الوطأة على الإبل، ناهيك عن المسافات الطويلة وعن ريح الشمال الباردة والتي كانت شديدة القسوة على الجميع.

اشرب ياصاحب من ماء بنيّان العذب! قال لي حمد والذي حتى لو لم يمنعه من ذلك صيام رمضان لامتنع من الشرب حتى مجيء الرفاق. هذا هو ديدنهم، فحينما نصل إلى الموارد عطشى بعد سفر يوم طويل لا تلامس شفاه الرواد قطرة من الماء حتى يصل من في المؤخرة. ولا أذكر أن أحدا منهم شاركني أكل البسكويت في الظريق ما لم يكن بقية الرفاق معه ليشاركوه في الأكل. إن كانت هذه الحياة القاسية تولد الوحشية في التعامل بين الأعداء فإنها مع ذلك تولد شعورا إنسانيا لا يجارى بين الرفاق.

حماية الرفيق لرفيقه وعدم الغدر به من الشعائر المقدسة في الصحراء، حتى لو أن اجتماعهما على نفس الطريق جاء بمحض الصدفة وبدون ترتيب أو اتفاق مسبق.

---

(١) الروله يعتقدون أن الضبعة هي التي تخيفها رائحة ملح البارود (Musil 1927: 169)

خيانة الرفيق "الخوي" أو التخلي عنه خطيئة لا تُغتفر، وهذا ما توضحه السالفة التالية التي وردت في عدة مصادر (عبيد: ٣٣٥؛ فهيد ١٩٩٥ : ٢٩؛ مارك ١٩٦٣/٤: ٥١–٦).

حدثت هذه الحادثة سنة ١٣٢٦هـ. هناك حايف عتيبي يسمّى عويهان الصل من العرده من جماعة ابن ربيعان تسلل إلى أحد نجوع الأسلم من شمر ليحوفهم، كما هي عادة أعراب ذلك الزمان، وسرق منهم فرسا أصيلا. وفي طريق عودته صادف رجلا من مطير يدعى ذعار بن نمش بن دعسان الديحاني فترافق الإثنان ومروا في طريقهم بمدينة الزلفي وضافوا أميرها محمد الراشد البداح وناموا عنده ليلتهم. وفي الصباح واصلوا رحلتهم يقودون الفرس. ولما وصلوا مكانا يدعى الضويحي ناموا هناك. ولما غط العتيبي في نوم عميق عزم المطيري على الغدر به فالتقط صخرة كبيرة وهوى بها على رأسه وأسال دماغه من جمجمته ومات في لحظته. هرب المطيري بالفرس متجها إلى قبيلته وادعى أنه سرق الفرس من الأسلم. وبعد أن شاع في قبيلته كسبه لهذه الفرس الأصيل صار فرسان مطير يتوافدون لمشاهدتها ويبدون إعجابهم بها. وبطبيعة الحال شعر أهله بالفخر لشجاعة إبنهم وصنيعه حيث لم يكونوا يعرفون حقيقة الأمر. ولما سمع الشمريون بالخبر ردوا على المطران قائلين على رسلكم لا تفخروا بفعلكم لأن الفرس التي سرقتموها منا تحت جنح الظلام نحن أصلنا كنا أخذنا أمها منكم في ساحة القتال بعدما رمينا عنها راكبها من الدوشان. ولما سمع الدوشان بذلك أخذوا الفرس من صاحبهم المطيري الذي ادّعى حيافتها لأن أعراف القبائل وسلوم العرب تجيز لهم ذلك. أما العتيبي المقتول فإن أهله افتقدوه بعدما مضى على غيابه عنهم مدة طويلة وطفقوا يبحثون عنه. ولما جاءوا إلى مدينة الزلفي أكد لهم أميرها أن ابنهم كان ضيفه منذ مدة ليست طويلة بصحبة شخص من الدياحين. فذهبوا يبحثون في الطريق التي سلكاها فما راعهم إلا أن وجدوا جثة ابنهم مقتولا. ولما تبين للغادر أن فعلته الشنيعة تكاد تنكشف فر هاربا والتجأ إلى الكويت واختفى هناك. ونتيجة لفعلته جر على أهله الخزي والعار وصاروا منبوذين ومحتقرين من الجميع، فلا أحد يتحدث معهم ولا يجلس معهم ولا يأكل معهم مما اضطرهم للجوء إلى مدينة عنيزة ليبتعدوا عن قبيلتهم التي قاطعتهم. وانتدب الأب أحد أبنائه إلى الكويت وشدد عليه أن يجد في البحث عن أخيه وأن يقتله حالما يعثر عليه ليبرؤا من غدره وأن لا يعود إلا بعد تنفيذ هذه المهمة. فركب الولد ذلوله ولحق بأخيه ولما وجده لم يُظهر له ما يريبه وتظاهر بأنه مسرور للقائه وأكد له أنه تم تسوية الموضوع وتم الصلح مع أهل المقتول بعد دفع الدية لهم، وحيث أن الأمور تمت على هذا الوجه لم يعد هناك ما يخشاه وما يبررابتعاده عن أهله وطلب منه وترجاه أن يعود معه إلى قبيلته لأن أمه وأباه اشتاقوا له ويتحرقون لرؤيته. وبعد الإلحاح اقتنع القاتل بكلام أخيه وامتثل لطلبه. وحالما خرجا من الكويت بادر الأخ بتنفيذ وصية أبيه فقتل أخاه عقابا على خيانته لرفيقه وما جره عليهم بفعلته المشينة، وحز رأسه ولفه وذهب رأسا إلى مجلس الدويش شيخ القبيلة ورمى بالرأس في المجلس ليثبت لهم براءة الأهل من فعل الولد. وبعد ذلك عاد الأب إلى القبيلة وطلب من الدويش أن يرد له الفرس ليعيدها إلى أهل المقتول من عتيبة لأن الدويش لم يعد له حق في الفرس حيث اتضح أن سارقها من قبيلة أخرى. ولما تم تسليم الفرس للعتبان رزوا راية بيضاء للمطيري في موسم الحج لثلاث سنوات اعترافا بجميله.

وقد أورد العبيد في مخطوطته (٣٣٢–٨) العديد من قصص الخوة التي لا يتسع المجال لإيرادها. وقد يتعذر على الرفيق مصاحبة رفيقه في الطريق لذا فإنه في هذه الحالة يكتفي بأن يضع وسم قبيلته على عصا الشخص المسافر، ولو أن أحدا من

قبيلة ذلك الشخص الذي تعهد بحماية المسافر تعرض للمسافر فإنه يكتفي بأن يريه الوسم على عصاه ليكف عنه أذاه. يقول ابن بليهد:

جئت من الحناكية في سنة ١٣٢٧ هجرية، وليس معي خوي، فصحبت عيرا قاصدة القصيم. فلما كنت عند طمية عجت إلى قرية مسكة فجئت قبيلة من الدلابحة رئيسهم رجل يقال له ملافخ، فبت عند غيره. فلما أصبحت قلت عند توجهي: أنا رجل منقطع، وليس معي رفيق من عتيبة، وما معي الا رفيق حضري، ونخشى أن يعترضنا أحد من عتيبة قبل أن نصل مقصدنا ولكن خذ عصاي فضع وسمك عليها. فوضع عليها الوسم (T) على هيئة المغزل وهو وسم قبيلته. فانطلقت إلى بلد مسكة ومعي صاحبي الحضري. فلما كنا في عريق الدسم أغار علينا جيش فناديتهم: ليس فينا طماعة. فقال رئيسهم: إن كنتم من عتيبة أو في وجيه عتيبة فأنتم آمنون. فأتونا فإذا ركائبهم عليها هذا الوسم (T) وإذا هم من قبيلة الحماميد التي يجمعها هذا الوسم كما يجمع قبيلة طلحة (١٢٧ :٢/١٩٧٢).

ومن القصص المشهورة في هذا الخصوص قصة نصار القعشيش المطيري مع ابن قريان العازمي (سريحي ١٩٨٣: ١١١–٥؛ فهيد ١٩٨٣: ١٧٠–١):

خرج نصار بن القعشيش المطيري من المحالسة من الهفتا من الكويت متجها إلي "قريه" برفقة ابن قريان العازمي. وفي عرض الطريق قابلهم مديد متجهين في الطريق المعاكس وأخبروهما أن جماعة نصار المحلسي تركوا "قريه" ورحلوا إلى النعيرية. فاضطر نصار إلى مفارقة رفيقه العازمي واتخذ طريقا آخر، ولكن قبل أن يودّعه وضع وسم قبيلته على عصا العازمي حتى لا يتعرض له أحد من مطير بسوء. وبعد أن تفارقا أغار غزو من مطير بزعامة فارس العميل الجبلي على العازمي وأخذوا ذلوله وبندقيته وملابسه غير آبهين بوسم ابن عمهم المحلسي. وقام العازمي فبعث قصيدتين إلى أمراء واصل وهم مجموع قبائل بريه، جماعة المحلسي، الذين وردت أساميهم في القصيدتين، يلزمهم بأداء ذلوله حسب السلوم فأدوها له. يقول العازمي في قصيدته الأولى ينخى شبيب الهفتا:

ياراكبٍ من عندنا فوق مذعار ... سفايفه مثل الملاويح تومي
ملفاك الد واصل وعلّم بالاخبار ... واشهر بصوتك في طويل الرجوم
فكّاكة المظهور بالموسم الحار ... ومطوّعة راس الحصان العزوم
قل الاد واصل لا تلومون نصار ... الله يلوم اللي بعد له يلوم[1]
كان الخوي كد فك من لاهب الحار ... الله خلقني له خويٍّ لزوم
جاني وجيته يوم لمّتنا الاقدار ... ووخذت ذلولي والتفق والهدوم
يافاطري وارجيك مع كل مرار ... وارجيك لو ني في غطاليس نومي
يازينها وان ردّدوهن للاكوار ... في لاهب الجوزا وحامى السموم
انخى شبيب ان كان سو البلا ثار ... ليا ردّدوا وسط المجالس علوم
يفزع بشلفا سَنّها كل بيطار ... يوم ان ولد اللاش يفزع بشوم

وهذه هي القصيدة الثانية:

يافاطري عيفي ردي المحاليف ... ما كان يرضى بالحقوق الهوافي
حنّي وعيدي عندهم بالتواقيف ... اظن لافيهم من البعد لافي
صيحي لهم من نجد لى ماقف السيف ... وانخي بصوتك لابسات الغداف
وانخي رفاعي وان كبى النذل ما شيف ... شبره علي شبر المناعير وافي
مقدم هل الجدعا حرار المشاريف ... من فوق قبٍّ مثل وصف الطخاف
وانخي عنان العزم ريف المواجيف ... مطلق ليا جا في مجاله سنافي

(١) الد: أولاد بلغة مطير والعوازم. الاد: أولاد.

زيزوم الد صندل ليا جو مزاهيف ليا صاح مجليّ الثمان الرهاف
وطامي ولد شباب ريف المناكيف ليا جن هزلى والمزاهب خفاف
ربع القريفه مفرّقين المواليف ليا جا نهار فيه ما من عوافي
وصيحي لَلَد منّاع قرّاية الضيف ذبّاحةٍ للحيل هي والهراف[1]
وانخي متيّهة البكار المشاعيف هواملٍ يروون حد الرهاف
نعمٍ ليا ركبوا مْهارٍ مزاهيف ليا جا طلبهم فازعٍ ما يفافي
اهل مهارٍ ما تعرف المحاريف يردون يوم ان اشهب الملح صافي
وانخي هل الحيزا رماةٍ ذواريف ولا تنهمين الا صبيٍّ سنافي
وانخى المريخي بالمثل كنه القيف مريخات يسقون العدو العياف
وان كانها راحت علوم وساليف انخ العوارض لين حقّك يشافي

وهناك قصص وأشعار كثيرة لا حصر لها يتناقلها البدو وتدور حول الخوي والخوة وتبين حرصهم الشديد على سلامة الرفيق وحمايته وعدم التعرض له بأذى. وأكبر ضرر يمكن أن يلحق بسمعة الشخص هو أن تتواتر الأخبار بأنه أهان رفيقه أو تعدّى عليه، كما في القصتين السالفتين، أو تقاعس في حمايته، كما في قصة محمد الحرقي القحطاني من عبيدة الذي ذبح خاله بخويه (فهيد ١٩٩٥: ٨٢–٣). ومثلها قصة نويشي ابن ناشي القبع الذي ذبح خاله أيضا لنفس السبب (بليهد ١٩٧٢/٥: ١٩٣؛ فهيد ١٩٨٥: ٥٦) والتي تقول:

> حل عند نويشي بن ناشي القبع الحربي من المشاعله من بني عمرو خوي مطيري من ذوي بدير يدعى اليتيّم. ولسبب ما قام جماعة نويشي بقتل خويه المطيري. فلما علم نويشي بتقطيعهم لوجهه وخفرهم لذمته اختبأ بمغارة وقام يقتنص جماعته ويقتلهم واحدا بعد الآخر. وبعد أن قتل العديد منهم وأرعبهم وعجزوا عن الإمساك به صوت له شيوخهم بالكفالة والأمان على أن يكف عنهم. وبذلك تمت تسوية الأمور بينهم ودفع الديات. وبعد مدة كان نويشي يسير مع خاله مطلق ولما مرا بالمكان الذي قتل فيه خوي نويشي أشار الخال بيده قائلا ياعونة الله، يذكر الشر ولا يعود، هذا هو المكان الذي قتلنا فيه رفيقك. قال الخال ذلك على أساس أن المسألة تم تسويتها وانتهى الأمر. ولم يكن نويشي يعلم قبل ذلك أن خاله كان من ضمن الذين قاموا بقتل رفيقه. فطلب نويشي من خاله أن يخبره ما قال خويه قبل ذبحهم له. فأجابه خاله: قال أنا خوي نويشي. فقطع نويشي يد خاله التي أشار بها إلى المكان. فقال أحد الشعراء يتمثل بتلك الحادثة:
>
> لى واهنيّ نويشي اللي قضى الدين مْتْقَبّلٍ نصف الشهر من قمرها
> عقب اربعه واثنين يسلم من الشين غير اليمين اللي نويشي كسرها

ويورد ابن بليهد قصة أهل شقراء مع خويهم ابن سجوان الرويس وهي كالتالي:

> أهل شقرا أخذوا ولدا لعبدالله بن سجوان من قبيلة الروسان خويا من عتيبة، وهم على جمال وحمير يجمعون الكلأ. فجاءهم ركب من الحناتيش بطن من الروقة ورئيسهم رجل يقال له حنيّان. فأغاروا عليهم فاعترضهم ولد ابن سجوان وقال: إن هؤلاء خوياي. فلم ينتبهوا وأخذوا ما كان معهم من زاد وماء فقط وتركوا الركاب والحمير. وأبو هذا الغلام الذي أخذوه خويًا كبير السن. فركب إلى قبيلته وقال لرئيس القبيلة حسين بن جامع: إني لا أرضى حتى تقتل حنيان. فقال: إنه لم يأخذ إلا زادا قليلا وماء قليلا وقد دفعه إلى ذلك

(١) المد: لأولاد.

الجوع والظمأ. فغضب الشيخ ورحل إلى بلد قحطان وجاور في قحطان سنتين ومعه ابن له آخر يقال له دحيم، وقال قصيدة نبطية وشكا حاله إلى ابنه دحيم منها:

يادحيم ديران الجماعه مريفه والي مع الاجناب كنّه على نار
والطير بالجنحان ما احسن رفيفه والى انكسر حدى الجناحين ما طار
ويمنىً بلا يسرى تراها ضعيفه ورجلٍ بلا ربعٍ على الغبن صبار

فلما سمع ابنه دحيم شعره قال له: ارجع ياأبت إلى وطنك وأنا الذي أقتل حنيّان ولا تستشير حسينا في ذلك، وهو يريد حسين بن جامع رئيس القبيلة. فأعجب ما قاله ابنه وجاء إلى بلاد قومه وسكن الشعرا لتصيد الفرصة في صاحبه لأنه بلد تنتابه الأعراب لأغراضها. فما شعروا إلا برجل أتاهم فقال: انظر حنيان الحنتوشي في قصر الرفائع يتغدّى عند صاحب القصر ابراهيم العجاجي. فندب الشيخ ابنه وندب معه ابن عم لهم يقال له حمود. فركبا راحلة وقصداه فوجداه قد مشى من قصر الرفائع وهو على جمل ومعه رفيق له ليس من قبيلته. فأدركاه قائلا تحت شجرة ومعهما سيف ورمح. فقالا لصاحب حنيان الذي ليس من قبيلته: إن أحببت السلامة فأعرض عنا وإلا فإنا نصنع بك مثل ما نصنع به. فتناولاه بالسيف ولم يبق فيه موضع إلا أكل السيف منه قسما، ثم ارتدا على راحلتهما وتركاه على أنه ميت. فمرا على العجاجي وقالا له: قتلنا حنيان، انظره هناك، ادفنوه. فرحل أهل القصر فوجدوا فيه رمقا، فحملوه إلى قصرهم. فبقي سنتين بين الحياة والموت، ثم سلم. فرأيته يركب الخيل وقد جعل في كفه الأيسر كلاليب يمسك بها حبال الفرس (بليهد ١٩٧٢، ٢: ١٢٦–٧).

والقصة التالية تبين لنا إلى أي مدى يمكن أن يذهب الإنسان لتبرئة ساحته من مثل هذه التهمة التي لو ثبتت عليه لشوهت سمعته وسببت له ضررا اجتماعيا واقتصاديا بالغا وربما حرمته من مصدر دخل لا يستهان به. القصة رواها لي خلف ابن غالب الجنفاوي الذي يمت بصلة قرابة للشخصية الرئيسية في القصة:

من عرض السوالف اللي صارت وعلّمونا بَه هذي قصة صارت بين خلف ابن فالح الجنفاوي وسعد الوجعان امير الفايد من الاسلم، تشوف، لان خلف صار عنده له حضريٍ من اهل المدينه، لانه صار عنده والحضري تاجر يبيع ويشري وتعزّبُه، سنع معزّب، يوم ان الناس تجي برفق، تسمعن، واكرمُه، وصار عند خلف واكرم الحضري وورّاوه كرامتُه وحْشمُه، وسوّى معُه يعني علمٍ غانم، سوّى معُه معروف. ايضا نوى يروح لديرتُه وصفّى، انت يالحضري، ونوى يروح لديرته. وقال: ياخلف ابيك تخاوين ليا المدينه. خوي والحضري له به يعني مرام، نوى يعني يجازيه بسبب كرامته له. وخاواه خلف ليا ما عدّاوه شمر ووصل معه المدينه. وجازاوه عاد باللي ظهر من خاطره، الكل منهم ظهر من خويُّه منسمح. وراحت الدنيا بْهَلَه وخذوا خمس سنين بعد ذلك، يعني اقفت الحصرة عن الحصرة وحضري، تسمعن، خلص من الجنفاوي وعلاقاته. بعد خمس سنين، طال عمرك، غزى، غزى الوجعان، والحضري تقوّت سالفته، غدى تاجرٍ قِوِيّ، غدى تاجرٍ قويّ، ما هي التجارة اللي على عهد خلف، وتقوّت سالفته وطلع له بحمله، طلع له بحمله، انت يالحضري،طلع له بحمله من المدينه ووافِقْهُ الوجعان وخذاوه. هاه؟ خذاوه. يدري انه خوي الجنفاوي لكن ان الدعوى مبطيه ولا له يعنَي علاقة به، مْصَفّينٍ حساباتهم الاوّله ولا بالوجه من الوجه شين. وخذاوه الوجعان. ويوم انه جا الاسلم والفى على شمر هذي قالوا: وشو فودك هذا، هالتاجر اللي انت خذيت؟ قال: حضري الجنفاوي. هاه. حضري الجنفاوي. يوم تواتر العلم واركب خلف وحول على الوجعان، صلّب عليه الجنفاوي، على الوجعان. قال له: الله دعاك الحق يابو ثامر. قال: وش يجيبك لي؟ ما لك بي علاقه ولا تلزمن بشين، هذا حضريٍ له خامس سنه

جاك ونهج بحدُّه وحديدُه ولا لك بي سنع. قال: انت اللي جبتُه وحطّيتُه بحلقي. تمشي مع وسط شمر وتقول هذا رفيق الجنفاوي. ويا مير هكالوقت ما من شرع، حقوق، قوانين، طواغيت، عوارف. وكل ما جوا عارفةٍ فْلجْه الوجعان. ويجلس هو وايّا سعد الوجعان، يجلس هو وايّاوه عند خمس حقّان، خمس جلسايْه، ويقلطون هو واياوه عند خمس حقان وفلجُه الوجعان. كل ما جلس هو وايا خلف فلجُه الوجعان. لان خلف ما لُه حق، ما من مْوَهّلٍ يوهّله اياوه الجنفاوي. وكل ما جلس فلجه الوجعان. خمس حقان، خمس جلسايْه اللي يجلس هو وايّاوه ويفلجه الوجعان. بعدين، تسمعن، ترّك الطلايب، افلس من الطلايب. يا خلف رجلٍ مشهور ومعه له خنجرٍ يسمونه هيفا تعْرَف، تَعَرفَه الاسلم كله، وعنده عمٍّ له اسمه عبهول، عمى، كفيف. الحضري دري بهالدعاوي هذي ودري بهالطلابة اللي بينهم وجا وحوّل على خلف وصار ببيتُه، عند الشايب، عبهول، عم خلف. جلس الحضري عند الشايب. وخلف يقفي ويقبل. يوم جا مروّحٍ هكالليلة خلف، مفلس من الطلايب والبلشات، هاه بشّر ياخلف؟ قال: والله ياعمي فْلجْت. قال: ار اخو ميثا حلالاة والله اللي يشوف، يقوله الشايب. يا مار خلف هو وايا ابوه هم اللي مْسَنّعينٍ عبهول، لكن عاد سالفة اللي يقول. قال: وش تبي تْعَمَل عاد يا صرت تشوف؟ لا انت اطيب مْني ولا اطيب من ابوي، حنا اللي مْوَهّلينك العلم الغانم وحاطّينٍ لك ذنبٍ تقعد عليه. يقول يوم اصبحوا يا مير خلف ما هوب بهذا. ركب ذلوله ومشى. ترّك الطلايب وعَدَى على الوجعان، أيّس من درب الحق، وعَدَى على الوجعان. يوم انه طلع على عرب سعد الوجعان وهو يجي عند هكالفريق وهو ينوّخ. يوم تعشّى ونامت الناس وهو ينسبت لك عليهم. يا بيت الوجعان معروف من بد عربه، رجال زعيم ومنصى وبيته ما ادري على خمس قْطاب ما ادري على سبع قطاب. يوم عدى عليه ويلقاوه نيمٍ هو وايا هلُه لُه بزوليّةٍ من زوالي الحضري، من الفود اللي هو جاب. وهو يقْعي عند راسُه، يقعد عند راسه، وهو يقضب شْفاة الزوليّة، الشفة الحدري والفوقى، من قدّام راسُه هو وايا هلُه وهو يخلّه بالخنجر ياما نشبت الخنجر بالزوليه وْيَثْبْتَه بالارض، كل اطراق الزولية، نشبت بالارض من تْحَتَه، وْسَرَه للارض. وهو يسري يم معازيبُه. يا مير الخنجر تعْرَف، يسمونَه هيفا، خنجر خلف ابن فالح الجنفاوي. يوم جا يبي يثور الوجعان يا والله انه مثبوتٍ له ما يقوى يجلع الغطا. وهو يطلع من قَفُو. يوم طلع وهو يبحّر يا والله ان الخنجر مْخَلولةٍ للزوليه. وهو يمصع الخنجر وياخذه ويشب النار يا هذي خنجر خلف وهو يلفزه تحت الفراش اللي هو قاعدٍ عليه.وهو ياخذه وهو يشيلَه وهو يشب نارُه ويسوّي قهوته لياما اجتمعوا ربعه. يوم اجتمعوا ربعه وهو ياخذ الخنجر قال: تعرفون هذي؟ قالوا: نعرفَه، هذي خنجر الجنفاوي، هذي هيفا. يا خلف هكالوقت يعْرَف، رجلٍ يعْرَف، له فعل. قال: هذا خالٍّ بَه هالزولية من قدّام راسي انا ويا هلي، لكن تدرون وشّو يقول؟ قالوا: ما ندري وشّو يقول. قال: يقول البارحة بهالزوليّة والليلة او القابلة أو قفيّتَه بظلوعك، ولا هي مْني وجايّ، لو ان الحد بيني وبينه عاد ربما اننا نتذارع الخام، لكن انا ذالٍّ يلحق الاسلم علْقَة شرٍّ بسبب هالحضري هذا. ويوم انه صار هذا لونه ترك الحقّان ويبي يفعل، وانا اللي بليتُه، جبت هالحضري وحطيتُه بحلقُه، فوّهتُه قلت هذا حضري الجنفاوي وبوجه الجنفاوي، لكن انا هالحين ابَدّي، ذالٍّ اصير قبْسَة شرٍّ على الاسلم. هالحين قضى من الطلايب ويبي يذبحن او اذبحه. والجنفا هكالوقت يهابونهم الاسلم لأنهم رجالٍ قوييّن واهل فعل. لكن قم يافلان اركب هالفرس ودوّر الجنفاوي عند حَدَى هالفرقان، تراك تلقاوه عند له معازيب، وخلّه يجي. ويوم انه طال عمرك استدار على النجوع اللي وزنهم يا هذا الجنفاوي عند ابن فلان. ويتسالم هو واياوه قال: ياحيّاك، الوجعان مسْتَلْحْقَك للادا. ويوم جا قال: ياخلف نويت تذبحن؟ قال: ما ذبحتك انا يوم هويت بيتك وقعدت عند راسك اني ناويٍ اذبحك لكن شحّيت بك ابيك للاسلم، لانك انت شيخ

الاسلم، ما فوقٍ مْنَك الا ابن طواله، وانت اللي ذبحت نفسك والا انا ما نويت اذبحك ولا انا اطيب مْنَك، لكن انت اللي ذبحت نفسك، جبت هالحضري من المدينه وحطيته بحثلي، ويوم انك حطيتُه بحلقي ما انا مخلّيه، انا وجهي ما يجي شبر، والا الحضري ناهجٍ مْني لُه خامس سنه، واليوم انا انذرتك نذاره. قال: ياخلف انا ابدّي اللي عندي، ما الله موزي. الله يرحمه زعيم وفهيم وعاقل. قال: انت العقيد، انفض الادا، هات اللي عندك واحلف انك ما تقّيت ولا بقّيت والاسلم ما انت مثْوَرٍ لهم، انا اعرفهم واعرف لهم وادلّهم واللي يبي يعيّي هذاك سالفة اللي يقول ناشدٍ ابوه عن خاله. العقيد بقوانينهم هكالوقت يامن العقيد ادّى ادّت الناس اللي تْبِعُ العقيد لان العقيد يا نفَض الادا ما صار للغزو شيّ. وجب اللي عندُه وهو يكوّمه قال: هذا اللي عندي وخط لُه مْسَبّعه وحلّفُه، هكالحين بِسْتَعَقْدون البدو، وخط لُه مْسَبّعه وحلّفُه انه ما تقّى ولا بقّى. قال: احلف يالوجعان، والله ما هوب تقصّيٍ عليك، لكن ابي الى منّك حلفت انت ما احد يجحد شين. قال: عاد انتم يالاسلم اللي يبي العافية يسوّي سواة العقيد، ما انتم اطيب من الوجعان، واللي ما يبي العافية انا اعرفكم وانا وراكم. ايضا طال عمرك ادَّوا، نفض الادا العقيد وادّوا، كلٍّ جاب اللي عنده. قصَد خلف له قصيدة قَبل، يوم نوى يْعَدي، قبل يفعل، وانا والله ما اكمّلَه لكن عاد من الشاهد يعني للسالفه. يقول الله يْسَلّمَك خلف ابن فالح الجنفاوي، يقول:

ياراكبٍ حمرا زواها الحيالي ... ما تْداني المحجان يلمس نحرها
ترعى طرى قفرٍ من الخوف دالي ... ما ذيّرَه عن واد قفرٍ نذرها
بيظرّ خيالٍ يفك المتالي ... جلاب روحه ما يداري خَطَرها
ما فوقها الا كورها والدلالِ ... ومامون سرٍّ راكبٍ بيظهَرها
سلم على عمي وراعى الحلالِ ... ياعمّي اصبر لا تباطا شهرها
اصبر عَلَيّ ياعم قطعة ليالي ... ولازم يجيكم يالنشاما خبرها
ملزوم تسمع عرصةٍ له ظْلال ... تلحق بَها النفس العزيزه دورها
امّا فرس والا خيار العيال ... ملزوم من يمناي يدفق حمرها
بالسيف الاملح عمدتي واحتمالي ... ولا عاد لي حقٍّ بغضّة نظرها
خويّنا بالحق ما به جدال ... وعيبٍ على اللي قالته ما قدرها
اصبر كما تصبر عواصى الجمال ... لو طالت الفرجه وطول سفرها
لو هو من الربع القريب الموالي ... اخير عندي من تجرّع كدرها